بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــداء

إليك يا أبي ..

أقدم ثمرة من ثمرات غرسك وباقة من روضات حبك ..

فقد علمتني أن أزن الرجال بميزان الخضوع للحق وحده ..

وعلمتني أن أكثر الذين يحسنون الكلام لا يجيدون العمل وأن أكثر الذين يجيدون العمل يفتقرون إلى الإخلاص وأن المخلصين من بعدُ على خطر عظيم .

وعلمتني أن الذين يعلمون ولا يعملون هم والجاهلون سواسية كأسنان الحمار .. وعلمتني أن القدح بالحق أشرف لي من المدح بالباطل وأن الذم الصادق خير لي من الثناء الكاذب ..

إليك يا أبي عساي أحوز بعض رضاك وأنت أنت صاحب القلب الكبير ..

وإليك يا أماه ..

فكم رأيت في عينيك بريق الدمع يمسكه الحياء وأنا أنص عليك

قصة قلبي الحزين . . وكم عُدت إليك محطّم القارب ممزّق الشراع فبعثت فىّ الأمل العذب وأيقظت فىّ أحلام السنين . . وكم أوصيتنى بأن الذى يجيد الحب لا يعجزه أن يكون أشدّ المبغضين . . وكم سهرتِ علىّ وأنياب الضعف والمرض تنهش فى جسدى وتغرس فى قلبى المسكين . .

إليكِ يا أماه وأنت النجم الساطع فى سماوات فكرى . . إليكِ لعلّى أبلغ رضاكِ . . ورضاكِ عندى ما تعلمين وتعلمين . .

ابنكما

محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

بقـــلم الأستاذ الدكتور

على عشرى زايد

أستاذ ورئيس قسم النقد والبلاغة

دار العلوم ـ جامعة القاهرة

هذا البحث

هذه الدراسة الجيدة عن « مجنون ليلى حقيقة أم خيال » تسترعى نظر قارئها واهتمامه ؛ فقد وفق كاتبها فى أن يختار موضوعا على قدر واضح من الثراء ؛ حيث وضع يده على شخصية من أغنى شخصيات تراثنا الأدبى وأقدرها على العطاء ، وهى شخصية « مجنون ليلى » قيس بن الملوح ، هذه الشخصية التى ما فتئت تلهم الأدباء والباحثين منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا إلى اليـوم ، ولا تنحصر أهمية هذه الشخصية فى مجرد كونها واحدة من أبرز الشخصيات فى تاريخ الشعر العُذرى ، هذا الشعر الذى يعدُّ أنبل وأرق ما بقى لنا من تراثنا الشعرى ، وإنما زاد من أهميـــة شخصية قيس ما حيك حولها من قصص وأساطير ، وما أثاره وجودها من خلاف تراوح

بين الإنكار والإثبات ، وكان هذا الخلاف حول شخصية قيس هو محط اهتمام الصديق محمد سعيد رسلان صاحب هذا البحث ، حيث عكف على المادة العلمية الواردة حول هذا الجانب من جوانب شخصية قيس يمحصها في صبر وإخلاص لينتهي من تمحيصها إلى إثبات وجود قيس ، حقيقة ناصعة من أنصع حقائق تاريخ الأدب العربي وأبقاها .

وكانت قدرة الكاتب على جمع هذه المادة ومعالجتها هذه المعالجة العلمية الجادة مظهرا آخر من مظاهر توفيقه في هذا البحث الممتع ، وربما يكون قد فاته الإفادة مما كتبته بعض مراجع الدراسات الأدبية الحديثة حول موضوع قيس ، وبخاصة ذلك الكتاب القيم الذي كتبه المرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال عن « الحياة العاطفية بين العذرية والصوفية . ودراسات نقد ومقارنة حول موضوع ليلى والمجنون في الأدبين العربي والفارسي » وهو كتاب في صميم موضوع البحث ، ولكن على الرغم من ذلك فإن الصديق محمد سعيد رسلان قد استطاع من خلال معالجته الخاصة أن يصل إلى كثير من النتائج التي وصل إليها الدكتور هلال مع اختلاف منهج المعالجة بينهما .

وعلى كثرة ما كتب عن مجنون ليلى وعن الاختلاف حول حقيقة وجوده فإن هذا البحث يظل له طعمه الخاص بين هذه الدراسات ، حيث

استطاع صاحبه أن يستوعب ما كتب وأن يفرزه إفرازا جديدا من خلال ذاته ، وساعده على ذلك لغة على قدر واضح من الرهافة والشفافية ، لغة نابضة رقاقة تناسب رهافة الموضوع وشفافيته ، وهكذا استطاع الباحث أن يجمع في بحثه هذا بين دقة العالم وشفافية الفنان ، كما ساعده على هذا التميز إلى جانب لغته النابضة الرهيفة عراقة روحية واضحة ، استطاعت أن تحلق به إلى آفاق روحانية ذلك الشعر الرفاف ، وجعلت بحثه يخاطب أرق وأنبل ما في الروح إلى جانب مخاطبته للعقل والوجدان .

وأخيراً كان من علامات تميز هذا البحث ودلالات توفيق صاحبه ذلك الذوق الأدبي الرهيف الذي ساعده على تذوق شعر قيس تذوقاً فنيا جيداً ، وعلى وضع يده على ما فيه من نبض شعري رفاف ..

لكل هذه الأسباب شدني هذا البحث الجيد ، وإخال أنه قادر على شد أي قارئ بنفس القوة على الرغم مما قد تختلف حوله آراء بعض القراء فيه مثل محاولة إقحامه بعض المقولات العلمية عليه إقحاما ، كمقولة التفرقة بين الحضارة والمدنية مثلا التي أجهد الباحث نفسه في أن يجعلها مدخلا لفهم شخصية قيس ، ولا أظنه قد حقق من هذه المحاولة ما حققه في جوانب بحثه الأخرى من توفيق ، فلا أعتقد أن قيسا كان رجل حضارة بهذا المفهوم الذي حاول الصديق محمد سعيد رسلان أن يقسره عليه ، بل لعل

عبقرية قيس تتجلى فى تلك الفطرة الإنسانية الناصعة ، حيث لم يكن سوى رجل بدوى . . أرهف الحب حواسه وسما بها إلى آفاق روحية عالية .

قد يكون فى البحث جوانب كثيرة تثير مثل هذا الخلاف فى الرأى ، ولكن هذا هو الشأن فى أى بحث جيد ، فإن ثراء البحث يقاس بمقدار ما يثيره من حوار ونقاش واختلاف فى الرأى ، أما البحث الذى لا يثير سوى الاتفاق مع صاحبه فى كل ما يقول فذلك هو البحث الذى لا يأتى بأى جديد ، ولا يقوم إلا على بدَهيّات أو مُسلّمات لا تستحق عناء أن يضيع الإنسان وقته فى كتابتها أو قراءتها .

وفى النهاية فإنى أتمنى للصديق محمد سعيد رسلان كل توفيق فى أبحاثه ودراسته المقبلة .

دكتور

على عشرى زايد

أستاذ ورئيس قسم النقد والبلاغة

دار العلوم ـ جامعة القاهرة

عصرُ قيسٍ وبيئته

ما أحوج المدنية الحديثة إلى روح الحب ! ذلك الحب الطاهر العفيف الذى يستوى فيه العطاء والحرمان . . والذى تتسع دوائره وتمتد آفاقه يوماً فيوماً وإذا المحبوب فى عين المحب عالمٌ زاخرٌ وكونٌ يموج . . وهذا الحب تتمثّل روحه أروع تمثُّـــلٍ فى روح قيس . . وفى نفسية قيس . . وفى شخصية قيس .

وما ذاك إلّا لأن قيساً كان « رجل حضارةٍ » على أوسع آماد هذا التعبير وما كان قيس إلّا وليداً بكراً للحضارة الإسلامية قبل أن تدخل الدولة الإسلامية فى « طور المدنيّة » وقبل أن يتحوّل رجل الحضارة إلى رجل المدنيّة .

يقول د . عبد الرحمن بدوى : « لتطوّر الحضارات منطقٌ قاسٍ يقضى بأن يأتى على كلّ حضارة دور تنتهى ببدئه « الحضارة » بمعناها الصحيح ليحلّ محلّها نوع آخر هو « المدنيّة » . وفى هذا الدور الجديد « دور المدنيّة » تكون الحضارة قد استنفدت قواها الخالقة المبدعة ولم تعد قادرة على إنتاج شىء جديد فيصبح همّها أن تفسّر التراث الذى خلّفته الحضارة

الصحيحة وأن تعيش على استهلاكه شيئاً فشيئاً كما يبدد الوارث مال أبيه دون أن يضيف إليه جديداً أو حتى دون أن يحتفظ به على حاله »(1) .

ويقول أيضاً : « وحياة رجل الحضارة – كما لاحظ أشبنجلر – تتجه إلى باطنه وداخل ذاته أي إلى أعماقه وقواه الخصبة التي يفيض بها بينما رجل المدنية تتجه حياته نحو الخارج أي نحو المكان المحيط به ووسط الأجسام المادية والحوادث الصادرة من البيئة والوسط . ذلك لأن الرجل الأول يعطي ويمنح ويبذل ما لديه من ثروة وغنى روحي يسخو به على الآخرين بينما الرجل الثاني يجد نفسه عقيماً فقيراً من كل ثراء ذاتي وقوة حية تشيع في روحه ويستطيع أن يعيش عليها فيضطر تبعاً لذلك إلى سد هذا العجز بالالتجاء إلى القوة الخارجية عنه يستجديها ويأخذ منها ما تسمح هي بإنفاقه ، ثم إن الرجل الأول يشعر في داخل نفسه بثورة جامحة تدفع به إلى البذل والفيض بقوته كي يصرفها ويخفف من ضغطها المتزايد الشديد بينما رجل المدنية يحس بأن هناك عوائق وسدوداً تقف دون حرية الخلق والابتكار لديه وبوجوب القيام بفحص دقيق لما هو موجود في الخارج كي يستطيع أن يُطبق عليه ويستخدمه ومن هنا نجد العقل وأقيسته تسود حياته وتشغله في كل عمل من أعماله فهو يقدر الدخل والإنفاق ويجري

(1) نيتشه . د. عبد الرحمن بدوي ط ٤ سنة ١٩٤٥ [illegible]

الحساب والموازنة ويحسب المنفعة والنتيجة بينما الغرائز وما تشتمل عليه من قوى زاخرة غير واعية هي التي تسيِّر رجل الحضارة »(1) .

ثم يتابع د. بدوي فيقول : « والأخلاق عند رجل المدنية غيرها عند رجل الحضارة فالأولى أخلاق شمسية والثانية أخلاق بطولة على حد تعبير أشبنجلر لأن الأول ينظر إلى الحياة والعالم من وجهة نظر الحاجة للحظة والواقع اليومي ويحاول جهده أن يتجنب واجب الحياة الثقيل أما الثاني فيفهم واجب الحياة بكل ما فيه من مصاعب ومشقة وما سيلقاه في تحمله من آلام لكنه مع ذلك يقبل هذا الواجب ويُقبل على أدائه في رضى وغبطة بل وفي شيء من الزهو والتفاخر .

والدين والحياة الدينية الخصبة الحية من مميزات الحضارة نجدها في كل مظاهرها من فن وعلم ونظم اجتماعية وسياسية؛ لأن حياة الفرد الداخلية ثرية غنية بينما المدنية تكاد تخلو من الروح الدينية وتنفر منها شيئاً فشيئاً .

ولسنا نقصد بالدين والروح الدينية هنا مظاهر الدين أو اتباع دين معين وإنما نقصد هذا الغنى الروحي وتلك الحالة النفسية التي يشعر الإنسان فيها بقوة وقدرة عظيمة على الإيمان بشيء والتعلق به والإخلاص له والتفاني من أجله والابتهاج بالتضحية في سبيله أياً كان هذا الشيء .

(1) نيتشه . د. بدوي . ص ١٤٦ .

وإن شئت مثلاً يريك الفارق بين الحضارة والمدنية على النحو الذى بيّناه فقارن الحضارة الإسلامية عامة قبل القرن الرابع الهجرى ثم قارنها بعد ابتداء هذا القرن فستجد أن خصائص الحضارة كما شرحناها هنا ظاهرة جلية فى الحياة الإسلامية قبل هذا القرن الرابع الهجرى كما ستجد أن الحياة الإسلامية منذ هذا القرن الرابع مطبوعة بطابع المدنية الذى رسمنا لك مظاهره وخطوطه الرئيسية »[1] .

وعصر قيس هو القرن الأول الهجرى وهو صدر دولة بنى أمية ، وهذا العصر وإن ماج بالفتن واضطربت فيه أحوال دولة الإسلام السياسية وتميز فيه الأمويون والشيعة والخوارج بعضهم من بعض وكثرت فيه القلاقل ثم استقر شيئاً ما عندما أصبح معاوية رضى الله عنه أميراً للمؤمنين إلا أن هذا الاستقرار كان يخفى فى مطاويه ناراً تلظى .

وقد بلغت النار أوج اشتعالها ، وأسفرت عن نفسها عندما قام الحسين ابن علىّ رضى الله تعالى عنهما يطالب بالخلافة ولا يقر عليها يزيد بن معاوية ثم كان ما كان من خذلان أهل الكوفة حسيناً رضى الله عنه وأريق دمه الزكىّ على أرض كربلاء .

هذا العصر وإن كان كذلك وأكثر من ذلك إلا أن تجلى روح الحضارة فيه أظهر ما يكون .

---

(١) السابق ص ١٤٧ — ١٤٨

وماذا تقول عن أخلاق « رجل الحضارة » البطولية وعن فهمه واجب الحياة بكل ما فيه من مصاعب ومشاق وما يتلقاه فى تحمله من آلام وهو مع ذلك يقبل هذا الواجب ويقبل على أدائه فى رضى وغبطة بل وفى شىء من الزهو والتفاخر . ماذا تقول عن « رجل الحضارة » هذا وعن أخلاقه بعد أن تمثل وتمثلت أخلاقه كأروع ما يكون التمثل فى واقعة استشهاد الحسين وثباته فى نفر قليل من صحبه وأهل بيته أمام جحفل جرار لا قبل لجيش كثيف العدد بلقائه فضلاً عن ثلة غير مهيئة للنزال ولا مستعدة للقتال ؟ ؟ ؟

فى هذا العصر عاش قيس « رجل حضارة » من الطراز الأول تتجه أعماله إلى باطنه وأعماق نفسه وداخل ذاته .. إلى أعماقه الثرة وإلى قواه الخصبة تفيض بها جوانحه وينبض بها قلبه .. رجل حضارة يعطى ويمنح ويبذل ويهب من ثروة نفسه ومن غناه الروحى .. وهو فى عطائه وبذله مدفوع بطاقته الجياشة لا سلطان له على وقف عطائه ولا على التحكم ببذله ونمائه .. رجل حضارة تسيره غرائزه الزاخرة غير الواعية .. فإذا تشوقت روحه للحب وإذا تطلع قلبه للوصل فلم لا يحب ؟؟ ولم لا يصل ؟؟

وهل ريبة فى أن تحن نجيبة ... إلى إلفها أو أن يحن نجيب

ولا خير فى الدنيا إذا أنت لم تزر ... حبيباً ولم يطرب إليك حبيب

وإذا فرضت عليه ظروف مجتمعه وعرفه القاسيان حالاً من الأحوال يضيق بها قلبه وتتبرم بها نفسه فلم لا يسبح في جو خياله ؟؟ ولم لا يهيم مع الوحش في الفلوات ما دام البشر قد ضاقوا ذرعاً بقربه وضاقوا ذرعاً بلقياه ؟؟

لقد لامنى في حب ليلى أقاربى ... أبى وابن عمى وابن خالى وخاليا
يقولون : ليلى أهل بيت عداوة ... بنفسى ليلى من عدو وماليا
أرى أهل ليلى لا يريدون بيعها ... بشىء ولا أهلى يريدونها ليا
قضى الله بالمعروف منها لغيرنا ... وبالشوق والإبعاد منها قضى ليا
قسمت الهوى نصفين بينى وبينها ... فنصف لها هذا لهذا وذا ليا

عاش قيس عصر الحضارة « رجل حضارة » يحس بالغنى الروحى وبتلك الحالة النفسية العميقة التى يشعر حيالها بأن لديه قوة وقدرة على التعلق بمحبوبته والإخلاص لها والتفانى من أجلها ثم بالابتهاج بالتضحية فى سبيلها كائنة ما كانت تضحيته .

ألم يقف على ذروة الجبل يجاذب الرجال ويجاذبونه وهو فتى كأحسن ما يكون الفتيان وأجملهم يريد أن يرمى بنفسه من أعلى الجبل وهو مصفر اللون ناحل البدن وهو يقول :

لقد هم قيس أن يزج بنفسه ... ويرمى بها من ذروة الجبل الصعب

فلا غرو أن الحب للمرء قاتل ... يقلبه ما شاء جنباً إلى جنب
أناخ هوى ليلى به فأذابه ... ومن ذا يطيق الصبر عن محمل الحب
فيسقيه كأس الموت قبل أوانه ... ويورده قبل الممات إلى الترب

وما أخرجه أبوه إلى الجبل إلا ليستقبل الريح التى تهب من ناحية نجد(١) وأى وفاء يكبر وفاء من يستفرغ عمره ويستنفد جهده فى محبوب لا تفارقه ذكراه طرفة عين ؟ ثم أى وفاء أسمى وأجل من وفاء يرعى على البعد كما يرعى على القرب ؟ غير أن وفاء قيس كان أبلغ من هذا كله وأسمى من هذا كله وأجل .. لقد كان قيس يرى « لشبه ليلى » وكأنها عادت عنده كل جميل أو إن أردت الدقة كأن كل جميل أصبح لديه ضارباً فيها بسهم . .

وهذا كثير يحدث عنه عند عبد الملك بن مروان عندما سأله : يا كثير هل رأيت أعشق منك ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين . قال : كيف وأنت القائل :

ركبان مكة والذين أرامهم ... يبكون من حر الفؤاد هموداً
الله يعلم لو أردت زيادة ... فى حب عزة ما وجدت مزيدا

قال : أخبرك يا أمير المؤمنين . بينما أنا أسير فى بعض البوادى فى

(١) ديوان مجنون ليلى الوالبى ص ١٣

ساعة الهاجرة فى يوم شديد الحر إذ رفع لى شخص فى مفازة ليس بها أنيس فذعرت منه ثم ملت إليه فإذا هو شاب حسن الوجه جعد الشعر فقلت : إنسى أم جنى ؟ فقال : بل إنسى . فقلت : ما أخرجك فى هذه الساعة إلى هذه البرية ؟ قال : نصبت شركاً للظباء . قلت : وقد قرمت إلى اللحم يا أمير المؤمنين : أيجعل لى فيه نصيباً إن أقمت عليك ؟ قال : نعم ونعمة عين . فأقمت عنده حتى اقتنص ظبية كأحسن ما يكون من الظباء ثم قبض على قرنها وأقبل ينظر فى محاسنها ويقول :

أيا شبه ليلى لا تراعى فإننى   لك اليوم من بين الوحوش صديق

ثم أطلقها وجعل ينظر فى أثرها ويقول :

أقول وقد أطلقتها من وثاقها   فأنت لليلى إن شكرت عتيق
فعيناك عيناها وجيدك جيدها   سوى أن عظم الساق منك دقيق
تكاد بلاد الله يا أم مالك   بما رحبت منكم على تضيق

قال كثير : ثم وقفت يا أمير المؤمنين ساعة فإذا قد علقت أخرى فصنع بها ما صنع بالأولى ثم أطلقها وأنشأ يقول :

ألا يا شبيه ليلى لا تراعى   ولا تتسلكى من بين التلاع
لقد أشبهتها إلا خلالا   نشوز القرن أو خمش الكراع

فتعجبت يا أمير المؤمنين من صنعه فما هى إلا هنيهة حتى علقت أخرى

فأطلقها من وثاقها وجعل يبكى ويقول :

تروح سالماً يا شبه ليلى   قرير العين واستطب البقولا
فليت على أنقذتك من المنايا   وفككت عن قوائمك الكبولا

فغاظنى يا أمير المؤمنين غيظاً شديداً وقلت فى نفسى ستعلم .. ثم مكثنا ساعة فعلقت أخرى فوثبت إليها فكسرت يدها طمعاً فى لحمها فبكى بكاء عالياً ثم قال : ويحك ! ما دعاك إلى أن أفسدت مودة يوافقنى وكنت ألفته ثم اغتفلنى فأتى ماء كان قريباً منه فغمس فيه كساءه فبله ثم أتى تويرة فأطفأها ثم قال : أفسدت حالى وما أرى إلا أنه قد مات (١) .. ومضى عبد الملك يلاحى كثيراً وكثير ينشده من شعر قيس حتى قال عبد الملك : ويحك ! عساه المجنون ؟ وقال كثير : نعم . قال : فزدنى من شعره . فزاده كثير (١) ...

تلك أخلاق البطولة فى روح الحضارة وهذا هو عصر قيس .. عصر حضارة تتنفس وتتيح دقيقها أنفاس الحياة .. عصر حضارة بكل ما دلت عليه الكلمة من معنى .. وهو أيضاً عصر مظلوم .. إى والله .. مظلوم بكل دلالة الكلمة .. وكيف لا وأحداثه السياسية كادت تطغى على كل

(١) ديوان المجنون . جمع الوالبى ص ٢٠ ؛ ذم الهوى ٣٩٣

حسنة فيه ؟ ؟ وكيف لا والتاريخ الإسلامي لم يدونوه إلا في عصر بني العباس عصر الخصوم الألداء لبني أمية ؟ أفليس من المعقول إذن أن يتناول الأعداء تاريخ أعدائهم بالمسخ والتشويه ويطمسوا الحسنات ويمقوا على عظائم الأمور ؟ ؟

إن العصر الأموي كاد يضيع ضيعة أبدية بعد أن قضت مكايد السياسة بتبديد ما ظهر فيه من آثار العقول ولكن الله لطف بذلك العصر حين أبقى لنا منه شخصية المجنون فقد شرقت تلك الشخصية وغربت حتى عطرت أنفاس الشعراء في المشرقين والمغربين[1] .. والعجب أن عصر الحضارة هذا لا يخرج سوى مجنون واحد على نمط « الرجل الحضاري » وهو قيس ... « والعيب كل العيب ألا يكون في الأمة العربية غير مجنون واحد يحدث الناس عن مآسي الأرواح وأشجان الأفئدة وأوطار النفوس .. العيب كل العيب أن يصبح الحب أسطورة من الأساطير تمثل في حديث قيس مع ليلاه وهو روح الدنيا وسر الوجود[2] ..

تلك لمحات عن العصر الذي عاش فيه قيس . فأما مكان عيشه فكان بادية نجد من بلاد العرب وقد كانوا قديما يقسمون هذه البلاد أقساما بحسب الارتفاع والانخفاض وأهم الظواهر الطبيعية البارزة في شبه الجزيرة

(١) مقدمة الديوان . د . زكي مبارك ص ٤

(٢) مقدمة الديوان . د . زكي مبارك ص ٤

العربية هي سلسلة جبال السراة وهي أعظم جبال العرب وأشهرها وتخترق شبه الجزيرة من الجنوب إلى الشمال على محاذاة الساحل الغربي فتمتد من أقصى اليمن حتى تبلغ أطراف بوادي الشام وتقسم شبه الجزيرة العربية قسمين قسما شرقيا وآخر غربيا[1] .. وما ارتفع بعد هذه الجبال إلى جهة الشرق يسمى نجدا[2] .. والذي لا شك فيه أن قيسا وأهله وليلى وأهلها كانوا جميعا بدوا يقطنون هذه البادية بادية نجد » والبدو وهم من القبائل الذين يتصلون بالبادية أشد اتصال يعتمدون في حياتهم على الحيوانات فكانوا مضطرين للبحث عن غذاء لما يملكون من ماشية ولهذا كانوا يتتبعون مواقع الغيث ومنابت الكلأ لينزلوا بها حيث يجدون هناك ما يفي بحاجتهم وحاجة حيواناتهم من غذاء وماء . ومن ثم شاع الاعتقاد بأن حياة هؤلاء البدو كانت موزعة بين الإقامة والظعن تبعا لوجود الكلأ ونفاده وإقامتهم في المكان كانت لفترة تنتهي بانتهاء ما فيه من عشب وماء . فإذا نضب معينه حزموا أمتعتهم وشدوا رحالهم إلى مكان آخر لفترة أخرى وهكذا باستمرار ..[3]

ويقول ابن قتيبة : سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مقصد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع

(١) قلب الجزيرة العربية ص ٩ (٢) في تاريخ الأدب الجاهلي ص ١٣

(٣) في تاريخ الأدب الجاهلي د . علي الجندي ٩١

واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كانت نازلة العمد في الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث كان (١) . . ويعلق الشيخ أحمد شاكر فيقول نازلة العمد هم أصحاب الأبنية الرفيعة الذين يتنقلون بأبنيتهم ونحو ذلك فسّر القراء قوله تعالى : « إرم ذات العماد » أنهم كانوا أهل عمد ينتقلون إلى الكلأ حيث كان ثم يرجعون إلى منازلهم . . (٢)

من هذا يتبين أن البدو لم يكن كلهم على شاكلة واحدة في الحل والترحال فمنهم أهل عمد ومنهم أهل مدر . . والذي يقطع به هو أن بني عامر ـ قوم قيس ـ كانوا أهل عمد استقر بهم المقام في بادية نجد . . يقول البكري : ونزل نجداً من العرب بنو كعب بن ربيعة بن عامر ودارهم الفلج وما أحاط بها من البادية (٣) . .

وحياة البدوي في البادية حياة بسيطة تجنح للفطرة في مسيرها . . فالبدوي يأكل من طعامه البسيط ويرعى قطعانه يأكل منها ويكتسي من صوفها بما تغزل يداه ثم يصيد أحياناً لطعامه وأحياناً لرياضته كي يدفع عن نفسه ضراوة الوحوش وهو حريص على شرفه وعرضه يدفع عنهما بالنفس ويذود عنهما بالروح كي يدفع عنهما بغي الآثمين . .

(١) (٢) الشعر والشعراء ص ٧٤ ، ٧٥ وماليهما . (٣) معجم ما استعجم ص ٩

ولا يفوتنا أن البادية أفرغ للغزل وأرحب به مجالاً من الحاضرة على غير ما يتبادر إلى الذهن من الخطرة الأولى لأن البدوي والبدوية يستعيضان بالغزل عن عشرات من الملاهي الحضرية التي تدور عليه وتحوم حوله في المدينة الكبيرة (١) . . فالبادية مهد الغزل قبل الحاضرة وأيسر للمرء أن يتصور مدينة بغير شعر غزلي من أن يتصور بادية لا ينتظم هذا الشعر في كل حين إلا أن البادية تتقيد ببعض القيود التي تستدعيها معيشة البدو ولا تستدعيها معيشة الحضريين لأن « المنعة » ضرورة من ضرورات الحياة بين أهل البادية ولا مناص لهم من الاشتهار بمناعة الحوزة بين الأعداء والنظراء وإلا طمع فيهم كل طامع واستباحهم كل مستبيح . . وأول حوزة يحميها الرجل هي المرأة فمن شرف البدوي أن تكون فتاته منيعة الحمى يتقاصر عنها لسان المتغزل كما يتقاصر عنها سيف المغير . .

في هذه البيئة نشأ قيس . . وأحب قيس . . وبيئة هذا شأنها يستفرغ المحب فيها طاقة الحب كلها . . وإذا كان المحب شاعراً رقيق القلب غزلاً والمحبوب يفوق الأقران ملاحة مع الحجب والحرمان فهو التدله . . وهو الهيام . . وهو العطب . . وقد كان . .

(١) جميل بثينة : العقاد ص ١٤ ، ١٥ ، ١٦ بتصرف .

. . أوهام وأباطيل . .

اختلف الناس فى وجود قيس أو المجنون طرائق قدداً فمنهم من أثبت ومنهم من أنكر . . ونحب قبل أن نتناول دعاوى المنكرين بالتمحيص أن نقرر بعض الأصول :

أولاً :

إن أسهل شىء يفعله الذين لا يتبعون منهجاً علمياً فى البحث أن يقول قائلهم : أظن وأشك وأتوهم وأنكر وأنفى ثم يجىء كلامه من بعد « ظلمات بعضها فوق بعض » وكأن أحدهم لن يصير يوماً ميتاً مع الأموات وكأن إلاههم الذى يعبدونه من دون الله . . ديكارت . .

ثانياً :

الذى أورد الأقوال التى تنفى وجود قيس وتشكك فيه هو هو الذى أورد أدلة إثبات وجوده فإن كان جل الاعتماد على نقله فلم يؤخذ بجانب النفى ولا يؤخذ بجانب الإثبات ولم الترجيح من غير مرجح ؟

ثالثاً :

الذى تولى كبره فى التشكيك فى وجود قيس وأتعب فى ذلك نفسه

هو أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى . . وفيه يقول ابن واصل فى مقدمة التهذيب : واختلفوا فى جرحه وتعديله فممن قدح فيه أبو محمد الحسين بن الحسين فقال : كان أبو الفرج أكذب الناس كان يدخل سوق الوراقين فيشترى شيئاً كثيراً من الصحف فيروى منها . . وممن عدله أبو الحسن جحظة قال لم يكن أحد أوثق من أبى الفرج الأصفهانى وقد روى له شعر حسن . . (١)

وجحظة هو أستاذ أبى الفرج ومن المنطق أن يشهد لتلميذه النجيب وخاصة إذا كانا متشابهين فى كثير من الأخلاق . .

وبالنظر فى كلام ابن واصل وقياساً على ما فرعه المفرعون وأنكره المنكرون من ميل لجانب السلب والنفى فأبو الفرج أكذب الناس . .

وبيان هذا القياس أن أبا الفرج ساق أقوالا تنفى وجود قيس ثم أتبعها بأقوال تثبت وجوده وابن واصل ساق قولاً يرمى أبا الفرج بأنه أكذب الناس وأتبعه بآخر يصفه بأنه أوثق الناس . . فإذا أخذنا جانب السلب والنفى وقلنا بنفى وجود قيس فلماذا لا نأخذ بالقول الذى يرمى أبا الفرج بأنه أكذب الناس ؟ ؟ ألا ترى أنك إن لم تفعل تكون قد رجحت من غير مرجح وسوغت من غير مسوغ ؟ ؟

(١) مقدمة تهذيب الأغانى ص ٦ ، ٧

رابعاً :

رواية الأدب إن أجبرت على الخضوع لقواعد مصطلح الحديث وعلم الرجال فلن يكون هناك أدب . لأجل ذلك ينبغى التفرقة بين رواية الأدب وبين المحدث كذلك ينبغى أن نفرق بين الرواية والمؤرخ . . فالراوية يرى كل ما يصل إليه كما وصل إليه أما المؤرخ فهو لا يروى إلا ما يعتقده حقاً ويثق فيه صدقاً . .

وقد تناول عالم من علماء الجرح والتعديل ـ وهو ابن الجوزى ـ تناول أبا الفرج نعرضه على قواعد علم الرجال فجرحه وقدح فيه ووزنه بميزان التعديل فلم يجده شيئاً . . يقول ابن الجوزى عنه : كان يتشيع ومثله لا يوثق برواياته فإنه يصرح فى كتبه بما يوجب عليه الفسق ويهون شرب الخمر وربما حكى ذلك عن نفسه [1] . .

فأبو الفرج غير عدل عند ابن الجوزى فهو لم يوثقه بل نسبه إلى الفسق وحذر منه وابن الجوزى على أنه إمام من أئمة الجرح والتعديل وفارس من فرسان علم الرجال إلا أن تحكيمه علم الرجال فى رجال الأدب أمر يدعو إلى الإشفاق . .

وما كان أبو الفرج إلا راوية يخلط الدر بالبعر ولا يفرق بين الغث

(١) المنتظم جـ ٦ ص ٣٤٠

والسمين فى غالب الأحوال وإنما يروى ما وصل إليه كما وصل إليه بلا تمحيص ولا تدقيق . . يقول د . خلف الله : « إن أبا الفرج واضح الدلالة فى أنه كان يجرى على مذهب الرواة [1] » وأول ما يطالعنا من هذه الدلالات أن أبا الفرج كان يحرص حرصاً شديداً على ألا يفوته أى شىء مما يعرفه الناس فهو حريص على جمع كل ما قيل حتى ولو كان من الموضوعات والأكاذيب وليس ذلك من مذهب المؤرخين الذين يحرصون الحرص كله على الوقوف على الحقيقة وذكر ما يعتقدون أنه الحق . والنصوص التى يفصح فيها أبو الفرج عن هذه الظاهرة كثيرة نستطيع أن نعرض منها ما يلى :

١ ـ جاء فى الأغانى : « وممن حكى عنه أنه صنع فى شعره وشعر غيره المتبصر . فإنى ذكرت ما روى عنه أنه غنى فيه على سوء العهدة فى ذلك وضعف الصنعة لئلا يشذ عن الكتاب شىء وقد روى تداوله الناس [1] . .

٢ ـ وجاء أيضاً : « وممن هذه سبيله فى صنعة الغناء المعتز بالله فإنى لم أجد له منها شيئاً إلا ما ذكره الصولى فى أخباره فأتيت بما حكاه للعلة التى قدمتها من أنى كرهت أن يخل الكتاب بشىء قد دونه الناس وتعارفوه » [2] .

(١) الأغانى جـ ٨ ص ١٧٩ ساسى . (٢) الأغانى جـ ٨ ص ١٧٢

٣ ـ وجاء : « وهذا الخبر موضوع من مصنوعات ابن الكلبي والتوليد فيه بيّن وشعره شعر ركيك غث لا يشبه أشعار القوم وإنما ذكرته لئلا يخلو الكتاب من شيء قد رُوى (١) ..

٤ ـ وجاء : « وقال مؤلف هذا الكتاب : وهذه الأخبار التي ذكرتها عن ابن الكلبي موضوعة كلها والتوليد بيّن فيها وفي أشعاره وما رأيت شيئا منها في ديوان دريد بن الصمّة على سائر الروايات وأعجب من ذلك هذا الخبر فإنه ذكر فيه ما لحق دريد من الهجنة والفضيحة في أصحابه وقتل من قتل منهم معه وانصرافه منفرداً . وشعر دريد هذا يفخر فيه بأنه ظفر ببني الحارث وقتل أماثلهم . وهذا من أكاذيب ابن الكلبي وإنما ذكرته على ما فيه لئلا يسقط من الكتاب شيء قد رواه الناس وتداولوه (٢) . .

فأبو الفرج إذن يجمع كل ما قيل .. يجمع الصادق وغير الصادق لأنه لا يريد أن يخلو كتابه من شيء يعرفه الناس ولو كان هذا الذي يعرفونه من المصنوعات والأكاذيب وتلك كما قلنا ظاهرة من الظواهر التي تلازم الرواة ولا تلازم المؤرخين .. نعم نحن نعلم أن أبا الفرج كان يعقّب أحيانا على غير الصادق ولكن ذلك لا يخرجه من عداد الرواة ولن يدفع به إلى عداد المؤرخين (٣) .

(١) نفسه جـ ١٨ ص ١٦١ (٢) نفسه جـ ٩ ص ١٩

(٣) صاحب الأغاني . د . محمد خلف الله ص ١٨٧ ، ١٨٨

وقد كان حريًّا بنا أن نعجب من أبي الفرج وهو يذكر فيما سبق من نصوص الأغاني عن ابن الكلبي مثل قوله « وهذا الخبر من مصنوعات ابن الكلبي » .. ويذكر عنه أيضا : « وهذا من أكاذيب ابن الكلبي » فهو عنده صاحب مصنوعات وأكاذيب .. كان حريًّا بنا أن نعجب منه إذ يقرر هذا ثم يذكر عنه فيكثر في كتابه الأغاني ولكن العجب لا مسوغ له إذ يقرر فيما سبق أن أبا الفرج « راوية » ثم هو حريص غاية الحرص على الجمع فقط فهو حاطب ليل لا ريب في ذلك ولا شك فيه ..

على أن أبا الفرج ليس راوية من الرواة على إطلاقه ولكن له روحا تشيع فيما يرويه « هي روح الرواة الذين يروون الخبر وهم يقبرعون من المهنة ويروون الأخبار وهم لا يقصدون إلى أقوالها إسناداً وإنما إلى أتمها ويروونها وهم يعلمون أنها في حاجة إلى التعديل بالزيادة أو بغيرها ويروونها وقد حضوا غيرهم على ألوان من التعقيب والتصحيح ومن الإضافة أو الزيادة إن وقع الكتاب في أيديهم (١) ..

خامساً :

من المؤرخين العلماء الذين أوردوا حديث قيس وهواه إمام جليل

(١) السابق ص ١٩٠ ، ١٩١

من أئمة أهل السنة ثقة لا مطعن فيه هو الإمام ابن قتيبة فقد أورد ترجمة قيس فى كتابه « الشعر والشعراء » وذكر فيها نسبه وطرفاً من أخباره وساق قصة وفاته ولم يتعرض ابن قتيبة بكلمة واحدة إلى الشك فى قيس أو الطعن فيه . فإذا علمنا أن ابن قتيبة مات قبل أن يولد أبو الفرج الأصفهانى ـ وهو على هذا أقرب إلى عهد قيس ـ فهذا يدل على أن التشكيك فى قيس ووجود قيس إنما كان فى كهف الغيب أو على أقل تقدير غير مُشاع ولا معتقدٌ به . فإن قلت : ما لابن قتيبة والشعر وحديث الغزل ؟ ؟ قلنا لك : أنصفت . ولكنه إمامٌ يتحرّى فى نقوله وما كان بالذى تخدعه أسطورة تُردّدها وتلوكها الألسنة لو كان قيس أسطورة من الأساطير . .

كذلك يذكره شيخ البلغاء ـ الجاحظ ـ وهو أيضاً قد مات قبل ميلاد أبى الفرج بما يقرب من نصف قرن يذكره فى « البيان والتبيين » فيقول : وأمّا مجنون بنى عامر وبنى عقيل فهو قيس بن معاذ وهو الذى يُقال له : مجنون بنى عامر [1] يذكره الجاحظ من غير إشارة شكٍّ إلى وجوده . . يذكره هكذا وهو الحريص على الطريف والمعجب والفريد . . يذكره على أنه مجنون بنى عامر ثم تأتى بعض روايات الأغانى بعد ذلك بحوالى قرنٍ من الزمان فتنفى أنه كان فى بنى عامر مجانين . . .

(١) البيان والتبيين جـ ٤ ص ٢٢

سادساً : [illegible]

لعل السبب فى إنكار قيس أنه أصبح « شخصية عامة » ورمزاً على الحب . . لذلك يورد صاحب الأغانى قولة الجاحظ « ما ترك الناس شعراً مجهول القائل قيل فى ليلى إلا نسبوه إلى المجنون » [1] . . ويقول ابن المعتز فى هذا المعنى : العامة الحمق قد لهجت بأن تنسب كل شعر فيه مجون إلى أبى نواس وكذلك تصنع فى أمر مجنون بنى عامر كل شعر فيه ذكر ليلى تنسبه إلى المجنون [2] فقد أصبح قيس كالجندى المجهول لكل محبٍّ فيه نصيب وكل مقتول بالعشق إليه ينتسب . ومَنْ كان هذا شأنه وكانت حياته وقفاً على الحب والغرام وهو الأمر المحبّب لعامة الخلق فإن الحديث عنه يتعدّى الحقيقة إلى الخيال فى كثير من الأحايين وخاصة إذا تناولت سيرته « العامة الحمق » على حدّ تعبير ابن المعتز . .

لذلك يُختلف فى أسماء المجنون ونسبه فهو قيس أو مهدى أو الأقرع أو معاذ أو البحتري أو البختري وهو عامريّ أو كلابيّ أو جعديّ أو قشيريّ ثم يكون الخلاف مدعاةً للشك فيه وإنكاره مع أن « الاختلاف فى الاسم ليس مقصوراً على مجنون ليلى بل نجده فى أكثر الأسماء التى اشتهرت بكنيتها أو لقبها فهذا الأحنف بن قيس قيل : اسمه

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٨ (٢) طبقات الشعراء ص ٩٩

الضحاك وقيل: صخر وقيل: الحارث. وهذا هو أبو ذرّ الغفارى الصحابى المشهور مختلف فى اسمه واسم أبيه والمشهور أنه جُندب بن جنادة وقيل جندب بن عبد الله وقيل اسمه برير وقيل اسمه بُرير إلى آخر روايات الاختلاف.[1] هاهو الاختلاف فى الاسم وارد مع أن النقل هنا فى غاية الضبط والدقة فالمنقول عنه صحابىٌّ وتابعىٌّ شهير ولم يقل أحد إن هذا الاختلاف مدعاة إلى الشك فى شىء ولا يقول بهذا عاقل وهذا الاختلاف أيضاً وارد فى حق شاعرٍ أقدم من قيسٍ بكثير هو «أعشى تغلب الشاعر اسمه عمرو بن الأهتم وعمرو بن الأيهم وعبد بن الأيهم وربيعة ابن نجوان»[1] ولم يُنكر الأعشى أحد..

سابعاً:

وُلد صاحب الأغانى سنة أربع وثمانين ومائتين أى فى نهاية القرن الثالث الهجرى وقد بدأ طور «المدنية الإسلامية» وحلّت روح الحضارة على ما بيّناه فيما سلف وقد أوردنا هناك قول الدكتور بدوى «وإن شئت مثلاً يريك الفارق بين الحضارة والمدنية على النحو الذى بيّناه فقارن الحضارة الإسلامية عامة قبل القرن الرابع الهجرى ثم قارنها بعد ابتداء هذا القرن فستجد أنّ خصائص الحضارة كما شرحناها هنا ظاهرةٌ جليّة

(١) مقدمة الديوان.. عبد الستار فراج ص٢٤

فى الحياة الإسلامية قبل هذا القرن الرابع الهجرى كما ستجد أنّ الحياة الإسلامية منذ هذا القرن الرابع مطبوعة بطابع المدنية الذى رسمنا لك مظاهره وخطوطه الرئيسية».

وأبو الفرج أمضى حياته العلمية وجمع كتابه لاريب فى القرن الرابع الهجرى وقد ذكر ابن واصل أنه جمع كتاب الأغانى الكبير فى خمسين سنة[1] فأبو الفرج ما كان إلا وليداً بكراً للمدنية الإسلامية وهو «رجل مدنية» من الطراز الأول كما أن قيساً «رجل حضارة» من الطراز الأول فليس بعجيبٍ إذن أن ينكر أبو الفرج قيساً بل وليس بمستنكر أن يعده أبو الفرج نادرة الفلك وأعجوبة الزمان ما دام بينهما من الخلاف ما بينهما.. وما دام أبو الفرج لايستطيع أن يوثق السند عن الرواة لبُعد العهد شيئاً ما ولحرصه الشديد على الرواية واشتغال الناس بمتاع الجسد عن الحب وجديته...

والذى كان جديراً بأن يستوقف النظر ويثير العجب هو أن يُثبت أبو الفرج قيساً من غير نكيرٍ مع ما بينهما من تفاوتٍ وخلافٍ...

ولعلّ من الخير أن نبحث بعض البحث عن حياة أبى الفرج الخلقية لنعرف عن أىّ خُلق يصدر فهو لم يكن بالتدين والأجواء التى كان يعيش فيها

(١) مقدمة تهذيب الأغانى ص ه

من جوّ أستاذه وصديقه جحظة إلى جوّ المهلبي ومن لفّ لفّه من رجال الدين من أمثال القاضي الأيذجي والقاضي التنوخي أولئك الذين يحيون حياتين ظاهر فيه الطهر والعفاف وباطن فيه الفسق والفجور كانت على ما رأينا أجواء فاجرة داعرة وإنها لتدفعنا إلى التسليم بأن أبا الفرج كان من الذين يتخلّعون ويتهتكون ومن الذين يأتون الذكران من العالمين[1] ..

وأبو الفرج في عرف المؤرخين أيضاً من القذارة بمكان فهو وسخٌ قذرٌ دنسٌ في نفسه وثيابه[2] ولعله من هنا كان بذيء اللسان لا يتورّع عن دنس ولا يتعفف عن مكروه ولعلّ هذه الصفات قد لازمته منذ الصغر بل لعلها أن تكون أثراً من آثار أستاذيه القذرين أحمد بن جعفر جحظة وإبراهيم بن محمد عرفة[3] .

وقد ساق ياقوت حديثاً له مع غلام من الغلمان كان يهواه وقد نقل ياقوت ما نقل من كتاب لأبي الفرج اسمه « آداب الغرباء » وهي حكاية ظاهرها مجونٌ وباطنها خلاعة وفُجر وقد علّق عليها د. خلف الله فقال بعد أن ساقها : وهو قول يدلّ على شغف أبي الفرج بالغلمان[4] .. ثم قال : « هذه التيارات الخليعة التي يرسمها أبو الفرج لنفسه تخلق داخلنا جواً

(١) صاحب الأغاني ص ١٤٥ (٢) معجم الأدباء ص ١٠٩
(٣) د. خلف الله ص ١٤٧ (٤) السابق ص ١٤٨

نفسيًّا معيناً يلذّ له أنواع من الأخبار ويطربه ألوان من الأقاصيص .. ومن هنا تكون الصلة بين التيارات الخليعة وبين المرويات[1] ..

ثم يقول د. خلف الله : « إن أبا الفرج قد قصد إلى الهزل لعوامل نفسية وفنية ولم يقصد إليه لأنه الحقيقة التاريخية فلقد قصّ أبو الفرج من المصنوعات والأكاذيب قصصاً وأخباراً ودلّ هو نفسه على بعضها وبرىء من العهدة في بعضها الآخر ولم يفعل هذا إلّا لأنه قصد إلى الرواية ولم يقصد إلى التاريخ وهو قد قصد إلى الرواية للإمتاع والمؤانسة واختار من المرويات ما يجعل الخبر ألذّ وأمتع والقصة أشهى وأحلى ليكون السمر اللذيذ وتكون الندوة المرحة ومن هنا كانت أقاصيص اللهو والغرام وكانت أحاديث الكتّاب والشعراء من الغلمان ..[2] وأخيراً يقول : « إن مزاج أبي الفرج ومزاج الذين يحيطون به من ندماء المهلبي قد وضُح في اختيار بعض الجوانب من حيوات بعض الشعراء والمغنين والخلفاء وهذه الجوانب ما كانت إلّا الخليعة الماجنة لتوافق هوى هؤلاء وتدخل السرور على أنفسهم وتكون مادة سمرهم وأحاديثهم ولعلّها بذلك تصوّر أحلامهم أكثر مما تصوّر واقعهم وتُرضي خيالهم أكثر مما ترضي عقولهم

(١) السابق ص ١٤٩ (٢) السابق ص ١٥٠

لعلّها أن تكون للتنفيس لا للحقيقة والتاريخ .. وقبل أن نترك الحديث عن هذه التيارات الخلقية نشير إشارة مجملة إلى أنّ أهواء أبى الفرج نحو الأشخاص لها نفس الأثر الذى شعرنا به لأهوائه نحو هذه الألوان الخليعة من الحياة فأهواؤه نحو إسحاق الموصلى جعلته يُعرض عن قول إبراهيم ابن المهدىّ فيه .. وأهواؤه نحو ابن المعتزّ جعلته يضيق بخصومه ويقف ليدافع عنه دفاعاً حاراً .. ونحو أبى تمام جعلته يضيق بابن مهرويه، ونحو آل نوابة جعلته يضيق بالبحترى أو بفنّ الهجاء عنده .. إن الأهواء الشخصية لأبى الفرج يجب أن تُتحسّس عند قراءة مروياته كما تُتحسّس الأهواء الدينية والسياسية(١) ..

قد أكثرنا النقل عن د. خلف الله لسببين : الأول : أنّ ما كُتب عن أبى الفرج قليل وهو موزّع فى بطون كتب التراث وكتاب د. خلف الله يحاول أن يسدّ هذا النقص. والثانى: أننا نحاول أن نتعرّف على بعض جوانب أخلاق أبى الفرج وهذا لا يمكن أن يكون إلّا باستعراض هذه الجوانب والتدقيق فيها .

ومّما أوردناه نخلُص بأن أخلاق أبى الفرج كانت من الضّعة والانحلال بمكان وأىّ مكان وبأن هواه ما كان يمكن أن يكون مع قيس أبداً ..

---

(١) د. خلف الله ص ١٥١ ، ١٥٢

فإذا وجد نفسه مع قيس وحبّ قيس ـ وهذا كالتنبيه له على ضعة خلقه ـ كان كالطائر الذى يضع رأسه تحت جناحه إذا أراد الصيّاد أن يأخذه كأنه إذا كان لا يرى الصياد فإن الصياد لا يراه .. وهذا هو شأن أبى الفرج فقد أجهد نفسه فى التشكيك وقد عجزت أخلاقه أن تسمو سموّ قيس فما كان من أبى الفرج إلّا أن شكّك فى وجوده .

وقد يثور ههنا سؤال وهو : إذا كان أبو الفرج لاتقبل أهواؤه حديث قيس وتتنافر أخلاقه مع حبّه وهواه فلماذا أورد أخباره فيما يقرب من مائة صفحة من كتاب الأغانى ؟؟ والإجابة على هذا السؤال هو أن أبا الفرج كما قرّر هو يحرص على الرواية والجمع ولا يترك أمراً اشتهر فى الناس وسار فكيف يُغفل أمر قيس وحديث هواه ؟؟ ما كان يستطيع تجاهله ولو استطاع لفعل ..

بعد تقرير هذه الأصول وقبل أن نسوق بعض روايات أبى الفرج فى نفى وجود قيس ثم نعرضها على محكّ التمحيص والتدقيق .. بعد ذلك وقبل هذا نحب أن نلفت الذهن إلى أمور :

الأول :

أنْ ليس كل شيخ قد أخذ عنه أبو الفرج كان من العلماء الشيوخ فنحن

نعلم أن فيهم الأصدقاء والقرناء وأن منهم الكتّاب والندماء وأن منهم الورّاقين والمغنّين .

الثانى : أنْ ليس كل شيخ حمل عنه أبو الفرج وبلّغ بلفظ أخبرنا كان من الشيوخ الذين لقيهم أبو الفرج وجلس منهم مجلس الطالب من الشيخ فنحن نعلم أن أبا الفرج وغيره كانوا يبلّغون بلفظ أخبرنا عن الإجازات والمكاتبات .

الثالث :

أن شيوخ أبى الفرج الذين كان يجلس إليهم للكتابة عنهم أو للقراءة عليهم كانوا من الكثرة بحيث لا يُحصَوْن عدداً وكانوا مختلفين لا من حيث المواد التى يعلّمونها الطلاب فحسب بل من حيث المذاهب التى تقوم عليها المعرفة بحيث يدعوننا إلى التريّث قبل إصدار الأحكام(١) . .

إذا تقرّر هذا فلننظر بعدُ إلى بعض روايات أبى الفرج لنرى همّا تنجلى أطواؤها وسنلحظ فيها الآتى :

أولاً : تباين الروايات عن الراوى الواحد :

ومثال ذلك ما رواه عن الأصمعىّ فقد ذكر أنه قال وقد سُئل عنه

---

(١) د . خلف الله ص ١٢٣

ـ أى عن قيس ـ : لم يكن مجنوناً ولكن كانت به لُوثة كلوثة أبى حيّة(١) . .

وعاد فذكر هذا مرة أخرى عندما روى عن عبد الصمد بن المعذّل أنه قال : سمعت الأصمعى يقول ـ وقد تذاكرنا مجنون بنى عامر ـ قال هو قيس بن معاذ العقيلىّ لم يكن مجنوناً إنما كانت به لوثة وهو القائل :

أخذتْ محاسنَ كلِّ ما ضنّتْ محاسنُهُ بحسنِهْ

كاد الغـزالُ يكونها لولا الشوى ونشوز قرنِهْ(٢)

ثم ذكر تقرير الأصمعى مرة ثالثة عندما ذكر أن طالوت بن عبّاد سأل الأصمعى عنه فقال : لم يكن مجنوناً بل كانت به أُوْنة أحدثها العشق فيه كان يهوى امرأة من قومه يُقال لها ليلى واسمه قيس بن معاذ(٣) . .

وذكر أبو الفرج أيضاً أن الأصمعى كان يقول : الذى أُلقى على المجنون من الشعر وأضيف إليه أكثر مما قاله هو(٤) . .

يذكر أبو الفرج هذه الروايات عن الأصمعى يثبت فيها وجود قيس بل يقرّره ـ إذ ليس هناك مَنْ ينفيه حتى يحتاج إلى إثباته ـ ومع ذلك يذكر عن الأصمعى أنه قال : رجلان ما عُرفا فى الدنيا قطّ إلّا بالاسم :

---

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٢ (٢) الأغانى جـ ٢ ص ٣٣

(٣) الأغانى جـ ٢ ص ٤ (٤) الأغانى جـ ٢ ص ١٠

مجنون بنى عامر وابن القرية وإنما وضعهما الرواة[1] . . فهذا هو الأصمعى يُظهره ويُخفيه ويُثبته وينفيه . . حقاً لقد تبرأ أبو الفرج من العهدة عندما قال : وأنا أذكر مما وقع إلىّ من أخباره جملا مستحسنة متبرئاً من العهدة فيها فإنّ أكثر أشعاره المذكورة فى أخباره ينسبها بعض الرواة إلى غيره وينسبها من حكيت عنه إليه وإذا قدّمتُ هذه الشريطة برئت من عيب طاعن ومتتبّع للعيوب[2] . . لا يا أبا الفرج ولا كرامة ما برئت من عيب طاعن ولا سلمت من متتبع لعيوب . . ومَنْ ذا كلّفك أن تكون قبراً تجمع الشريف والوضيع والدنىّ والرفيع فيأتى من بعدك الذبابُ يطنّ من حول جيفك التى جمعتَ . . ويُنتن الدنيا ويُتعبها من أجل أخبارك الواهيات التى بعضها ببعض قرنتَ . . أتحبّ أبا الفرج أن نغلّب الكثرة من مروياتك أم كيف تحبّ أن نقوّم بضاعتك ؟ إن أخذنا بجانب الكثرة فالأصمعى قد قرّر وجود قيس أربع مرات فى مقابل مرة واحدة نفى فيها أن يكون . . فماذا تقول ؟ ألا يعجبك هذا اللحون ؟ ؟ فدعه إذن وخذ بجدّ ابن قتيبة إذ يقول : وكان الأصمعى يقول : لم يكن مجنوناً ولكن كان فيه لوثة كلوثة أبى حيّة .[3] فما تقول الآن أبا الفرج ؟ ؟ وأيضا

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٣ (٢) الأغانى جـ ٢ ص ١١

(٣) الشعر والشعراء ص ٥٦٣

فالخبر الذى نفى فيه الأصمعى وجود قيس قرن فيه بينه وبين ابن القرية فإذا جاء ابن خلّكان فقال : إن ابن القرية هو : أيوب بن زيد بن قيس والقرية أمه وكان لَسِناً خطيباً قتله الحجّاج لاتهامه بالميل إلى ابن الأشعث . .[1] فإذا كان أحد اللّذَيْن زعموا أن الأصمعى اتهم بهما الرواة كان حقيقةً لا خيالًا فما الذى يمنع أن يكون الآخر أيضا حقيقة وليس من وضع الرواة ؟ ؟

ثانياً : تعارض رواية الأدنى مع الأوثق منه .

كما تعارضتْ رواية ابن دأب مع رواية الأصمعىّ . . وابن دأب لا يقوم للأصمعى بحال . . وهذا واضح فى هاتين الروايتين . .

روى صاحب الأغانى عن ابن دأب قال : قلت لرجل من بنى عامر : أتعرف المجنون وتروى من شعره شيئاً ؟ قال : أو قد فرغنا من شعر العقلاء حتى نروى شعر المجانين ! إنهم لكثير . فقلت : ليس هؤلاء أعنى إنما أعنى مجنون بنى عامر الشاعر الذى قتله العشق فقال : هيهات ! بنو عامر أغلظ أكباداً من ذلك إنما يكون هذا فى هذه اليمانية الضعاف قلوبها السخيفة عقولها الصعلة رءوسها فأمّا نزار فلا[2] .

وروى صاحب الأغانى عن الأصمعىّ أنه قال : سألت أعرابياً من

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٩ (٢) الأغانى جـ ٢ ص ٢

بنى عامر بن صعصعة عن المجنون العامرى فقال : عن أيهم تسألنى ؟ فقد كان فينا جماعة رُموا بالجنون فمن أيهم تسأل ؟ فقلت : عن الذى كان يشبّب بليلى . فقال : كلّهم كان يشبّب بليلى قلت : فأنشدنى لبعضهم فأنشدنى لمزاحم بن الحارث المجنون :

ألا أيّها القلب الذى لجّ هائماً   بليلى وليداً لم تقطع تمائمُهْ
أفق قد أفاق العاشقون وقد أنى   لك اليوم أن تلقى طبيباً تلائمُهْ
أجدّكَ لا تُنسيك ليلى مُلِمّةٌ   تلمُّ ولا عهد بطول تقادمُهْ

قلت : فأنشدنى لغيره منهم فأنشدنى لمعاذ بن كليب المجنون :

ألا طالما لاعبتُ ليلى وقادنى   إلى اللهو قلبٌ للحسان تبوعُ
وطال امتراء الشوق عينىَ كلما   نزفت دموعاً تستجدُّ دموعُ
فقد طال إمساكى على الكبد التى   بها من هوى ليلى الغداة صدوعُ

قلت : فأنشدنى لغير هذين ممّن ذكرت فأنشدنى لمهدى بن الملوح :

لو أنّ لك الدنيا وما عُدِلتْ بهِ   سواها وليلى بائنٌ عنك بينُها
لكنتَ إلى ليلى فقيراً وإنما   يقود إليها ودَّ نفسك حينُها

قلت له : فأنشدنى لمن بقى من هؤلاء فقال : حسبك ! فوالله إنّ فى واحدٍ من هؤلاء لمن يوزن بعقلائكم اليوم . . (١)

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٦ ٠ ٧

ورواية الأصمعى هذه تقف من رواية ابن دأب موقفاً معارضاً . . ولكأنى بهما تتلاحيان ثم تمسك كل منهما بتلابيب أختها ليغيبا معاً فى طبقات الجحيم . . فابن دأب يروى عن «رجل من بنى عامر» أن ليس فى بنى عامر مجنون . . والأصمعى يروى عن «أعرابى من بنى عامر» أنّ بنى عامر مجانين كثرٌ يضلّ فى تفصيلهم ضلال الحلم . . ومن روى عنه ابن دأب يزعم أنّ بنى عامر قوم غلاظ الأكباد لا يعرفون الحب ولا يسمعون عن الهوى . . والأعرابى الذى روى عنه الأصمعى يزعم ضمناً أن بنى عامر رقاق الأكباد يُجَنّ منهم بالعشق الجمّ الكثير والنفر الغفير . . فهل كان بنو عامر يمارسون الشعوذة ويحتالون على عباد الله بجنونهم فتارةً يبدونه وتارةً يخفونه وتارات يسلكونه فى زمرة المجانين ؟؟ أم أنّ الرواة أرادوا لسبب أو لآخر أن ينفوا وجود قيس فلمّا شقّ عليهم الأمر أبوا إلّا أن يخفوا ملامحه بأن يضمّوه إلى « بيمارستان » بنى عامر ؟؟

بين رواية الأصمعى ورواية ابن دأب من التناقض ما لا يخفى وأيضاً فرواية ابن دأب ذاتها فيها ما فيها . . فلو فرضنا أن هناك مَنْ قال شعراً وروى أخباراً وأوهم أنها لفتىً من بنى عامر يُدعى قيساً فشكّ ابن دأب فى هذا الأمر فأراد أن يتثبّت منه بأن يسأل أهل هذا الشأن فهم به أعلم وإذا المسئول أجهل بها من السائل . . فإن كانت فريةً افتراها بعضهم على

بنى عامرٍ أفما كان يحمل بواضع الرواية أن يفعل كما فعل مع الأصمعى فيجعله مجنوناً بين مجانين وقد تشابهوا فضاع فى المجانين قيس ؟؟

وردّ العامرىّ على ابن دأب أخذ صفة التعمم وهى أنّ بنى عامر ـ على إطلاقهم ـ أغلظ أكباداً من ذلك . . ثم ألصقها العامرى باليمانية ورماهم بضعف العقول وطيش الحلوم وكأنه كان يراها سُبّةً يجب أن يطهر ساحة قومه منها فألصقها بالعامريّة الضعاف القلوب . . فأنّى يؤخذ من مثل هذا كلام ؟؟ وهب أن بنى عامر غلاظ الأكباد ـ جملةً لا تفصيلا ـ لأنه لا يقول بذلك عاقل ـ أفما يصحّ أن ينبغ فيهم رجل رقيق القلب يكون كالشذوذ عن القاعدة ؟ وما وجه الاستحالة فى هذا الفرض الممكن المعقول ؟؟

ثالثاً : إصرار أبى الفرج على الرواية عمّن جرحهم هو ورماهم بالوضع والكذب فى غير موضع .

فهو يروى ـ مثلاً ـ عن ابن الكلبىّ ويعقّب عليه فيقول : « وهذا الخبر من مصنوعات ابن الكلبىّ . . »[1] ويذكر عنه أيضا : « وهذا من أكاذيب ابن الكلبىّ »[2] ومع هذا الرمى بالصنع والكذب يذكر أبو الفرج أنّ ابن الكلبىّ قال : حدثت أن حديث المجنون

(١) الأغانى جـ ١٨ ص ٢٦١ (٢) السابق جـ ٩ ص ١٩

وشعره وضعه فتى من بنى أميّة كان يهوى ابنة عمٍّ له وكان يكره أن يظهر مابينه وبينها فوضع حديث المجنون وقال الأشعار التى يرويها الناس للمجنون ونسبها إليه . . »[1] .

وابن الكلبىّ هذا الذى ساق أبو الفرج الرواية عنه هو هشام ابن محمد ابن السائب الكلبى من علماء الكوفة عالم بالنسب وأخبار العرب ومثالبها ووقائعها أخذ عن أبيه وعن جماعة من الرواة . .[2] وإن صحت رواية أبى الفرج عن ابن الكلبىّ فيكفى أن نعلم أنه كان كوفيًّا لكى نحتاط فى قبول روايته . . وقد عُرفت الكوفة فى الحديث النبوى بالوضع والانتحال فما بالك بما هو دونه ؟؟ وقد كان مالك بن أنس يسمّيها « دار الضرب » يريد أنها تضرب الأحاديث وتضعها كما تُضرب الدراهم والدنانير وتُصنع .! ويقول أبو الطيب اللغوىّ : والشعر بالكوفة أكثر وأجمع منه بالبصرة ولكن أكثره موضوع منسوب إلى مَنْ لم يقله وذلك بيّنٌ فى دواوينهم . .[3] فابن الكلبىّ إذن كوفىّ متّهم بالوضع والكذب وقد رماه بهما أبو الفرج نفسه فتنبغى الحيطة كل الحيطة فى قبول روايته فضلاً عن بناء أحكام عليها . .

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٤ (٢) د . الحندى ص ١٣٢
(٣) العصر الجاهلى د . شوقى ضيف ص ١٤٩

رابعاً : ـ هناك لونٌ خفيٌ من ألوان التعارض بين الروايات عند أبي الفرج فقد ساق عن ابن عباية أنه قال : سألت بني عامر بطناً بطناً عن المجنون فلم أجد أحداً يعرفه(١) . . ثم يسوق أبو الفرج بعد ذلك عن ابن عباية أيضا قوله : حدثني مَنْ سأل بني عامر بطناً بطناً عن المجنون فما وجد فيهم أحداً يعرفه(٢) .

فهذا هو ابن عباية يحدّث عن نفسه تارة ثم يحدّث عمّن حدّثه أخرى ولو أنّ رجال السند يخضعون لقواعد علم الرجال لهان الأمر ولكننا مضطرون إلى إقصائهم عن هذه المحنة لأن من ساق الرواية أصلاً ـ وهو أبو الفرج ـ متّهمٌ عند علماء الرجال . . لذلك فنحن مضطرون إلى الفرض . . فقد تكون إحدى الروايتين سابقة على الأخرى وفي هذه الحالة لابد أن تسبق الرواية الثانية الرواية الأولى لأنه لا يعقل أن يتكلّف ابن عباية مشقّة الحلّ والترحال ببني عامر بطناً بطناً ثمّ لا ينسب ذلك لنفسه ولكن لمن حدّثه إلّا إذا كان ابن عباية لا حلّ ولا ارتحل ببني عامر وإنما سأل مَنْ يفد عليه منهم وهذا موطن طعن لأنّ الرجل البدوي الذي يفد على الحضر يفد بأخلاق البادية . . ثمّ هو ينظر إلى الحضري بغير العين التي ينظر بها إلى أخيه البدوي فإذا سأل البدويَّ

(١) الأغاني جـ ٢ ص ٢ (٢) الأغاني ص (٩) جـ ٢

حضريٌّ عمّن قتله العشق من قومه فقد يرى البدوي هذا منقصةً ينبغي أن ينزّه عنها قومه ـ كما حدث مع ابن دأب إن صحت روايته ـ وعلى هذا فقول ابن عباية لا قيمة له . وربّما يكون الراوي، عن ابن عباية قد وهم في النقل عنه فجعله محدِّثاً لا محدَّثاً أو عكس ذلك فجعله محدَّثاً لا محدِّثاً وهذا ما لا سبيل إلى القطع به فماذا يا تُرى الذي كان ؟ ؟

وعلى الجملة فكتاب الأغاني كتاب حافل بالحكايات العجيبة والقصص الغريبة والنوادر الممتعة والمُلَح المعجبة . . وهو على هذا كتاب طيب لإزجاء أوقات الفراغ وللتسلية وكذلك للاحتذاء في أسلوب الكتابة لا للاحتذاء في أخلاق العبث والمجون . أمّا أن يكون الكتاب ذا غايةٍ وراء هذه فدون ذلك جمعك الماء والنار في يد .

مَنْ هو . . ؟

هو قيس بن الملوّح بن مزاحم أحد بنى جعدة ابن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة . واختلف فى اسمه اختلافاً شديداً غير أنّ ابن قتيبة لم يذكر فى اسمه خلافاً وإنما ذكر الخلاف فى اسم أبيه فقال بعد أن ذكر المجنون : هو قيس بن معاذ وقيل قيس بن الملوّح (١) .

وذكر صاحب الأغانى القول الذى رآه صحيحاً فقال : والصحيح أنه قيس ابن الملوّح بن مزاحم بن عُدس بن ربيعة بن جعدة بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة . ومن الدليل على أنّ اسمه قيس قول ليلى صاحبته :

ألا ليت شعرى والخطوبُ كثيرةٌ
متى رحل قيسٍ مستقلٌ فراجع (٢)

وساق ابن الجوزىّ بإسناده عن رباح بن حبيب العامرى أنه قال : هو قيس بن الملوّح بن مزاحم (٣) .

كذلك أورد صاحب الأغانى عن ابن زهير قال : سمعت من لا أحصى يقول : اسم المجنون قيس بن الملوّح (٤) .

(١) الشعراء والشعراء ص ٥٦٣ (٢) الأغانى ج ٢ ص ١
(٣) ذم الهوى ص ٣٨١ (٤) الأغانى ج ٢ ص ٢

وقد أورد أبو على القالى فى أماليه بيتين هما :

كأنّ القلبَ ليلة قيل يُغدى بليلى العامريةِ أو يُراحُ
قطاةٌ عزّها شركٌ فباتتْ تجاذبه وقد علِقَ الجناحُ

أورد هذين البيتين بعد أن قال : إنهما لقيس المجنون (١) . . فهو إذن مجنون ليلى العامرية أو مجنون بنى عامر . . وهو إذن قيس صاحبنا . .

على هذا فمجنون ليلى أو مجنون بنى عامر الذى تيمه الحب ودلّهه العشق لليلى العامرية هو قيس بن الملوّح . . وهو هو مجنون بنى جعدة . .

ومن ذلك رواية صاحب الأغانى عن أبى ثمامة الجعدىّ قال : لا يُعرف فينا مجنون إلّا قيس بن الملوّح (٢) .

ومما يُستأنس به فى تقرير اسم أبيه قوله يرثى أباه وقد قيل إنه مات ـ أى أبوه ـ قبل اختلاط قيسٍ وتوحّشه :

عقرتُ على قبر الملوّح ناقتى بذى الرمث لما أن جفاه أقاربُهْ
فقلتُ لها كونى عقيراً فإننى غداةَ غدٍ ماشٍ وبالأمس راكبُهْ
فلا يُبعدنك اللهُ يا بن مزاحمٍ فكلُّ امرىءٍ للموت لابدّ شاربُهْ

وهذه الأبيات يذكر قيس فيها أن أباه هو الملوّح بن مزاحم والبيت

(١) الأمالى ج ٢ ص ٦١ (٢) الأغانى ج ٢

الأول فيه إشكال . . لأنّ المعروف أنّ أبا قيس كان سيداً في قومه صاحب نعمة وثراء فكيف يجفوه أقاربه ؟ والجواب على هذا الإشكال أن قيساً ربّما كان يقصد بجفوة الأقارب جفوة آل ليلى لأبية وقومه ورفض أبى ليلى تزويجها إيّاه فيكون رثاؤه غزلاً أو استعطافاً من هذه الجهة . . وإن كنا نستبعد صحة نسبة هذه الأبيات لقيس ورد يكون قد قالها أحد آل الملوّح أو أحد أقاربه أو أحد بنيه ثم نسبت لقيس لشهرته . . ذلك لأن الذى تميل إليه أنّ أبا قيس مات من بعد قيس . .

وسواء صحت نسبة هذه الأبيات أم لم تصح فإن اسم قيس واسم أبيه الملوّح ذكرتهما عدّة مصادر يُوثق بالنقل منها والعزو إليها حتى إنّ أبا الفرج وهو من المشككين فى وجود قيس يذكر أنّ الصحيح فى نسبه هو أنه قيس بن الملوّح بن مزاحم[1] . .

وأمّا نسبته إلى الجنون أو نسبة الجنون إليه وغلبة هذا اللقب عليه فأعدل الأقوال فيه قول الأصمعى : لم يكن مجنوناً ولكن كانت به لوثة كلوثة أبى حيّة[2] .

وقد كانت عادة العرب جارية على أن تسمّى بعض شعرائها بأبيات من شعرهم ثم يغلب اللقب أو الكنية على الملقّب أو المكنّى ويصبح اسمه أثراً من بعد عين . .

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٢ (٢) الأغانى جـ ٢ ص ٢

من ذلك:

مسلم بن الوليد كان يلقّب « صريع الغوانى » لقوله فى قصيدة له :

هل العيش إلّا أن تروح مع الصبا
وتغدو صريعَ الكأسِ والأعين النجلِ[1]

وغيلان بن عقبة سمّى ذا الرمّة لقوله فى الوتد :

لم يبق منها أبد الأبيدِ غير ثلاثٍ ماثلاتٍ سودِ
وغير مرضوخ القفا موتودِ أشعث باقى رُمّة التقليدِ[2]

وشأس بن نهار سمّى الممزق لقوله :

فإن كنتُ مأكولاً فكن خير آكل
وإلّا فأدركنى ولمّا أمزّقِ[3]

وعبد الله بن رؤبة سمّى العجاج لقوله :

☆ حتى يعج عندها من عجعجا[4] ☆

وغير هؤلاء كثير . . إذا ذكرنا هذه العادة عند العرب وتذكرنا قولة الأصمعى فى قيس ثم جمعنا هاتين الحالتين مع حالة المحبّ الواله من ذهولٍ وسكونٍ واستغراقٍ فلا يستبعد إذن أن تكون واحدة من

(١) الشعر والشعراء ص ٨٣٢ (٢) السابق ص ٥٢٦
(٣) السابق ص ٣٩٩ (٤) السابق ص ٥٩١

تلكم هى التى غلّبت لقب المجنون على قيس أو تكون ثلاثتها اجتمعت على تغليب هذا اللقب عليه مع أنه لم يكن مجنوناً بالمعنى الطبى لهذا اللفظ ..

وقد روى صاحب الأغانى عدة روايات تؤيد هذا المعنى منها :

ما يدل على استغراقه فى التفكير حتى يُشغل عمّن حوله فلا يسمع كلاماً ولا يلفظ حرفاً .. قال محمد بن معن : بلغنى أنّ رجلاً من بنى جعدة ابن كعب كان أخاً وخِلًّا للمجنون مرّ به يوماً وهو جالس يخطّ فى الأرض ويعبث بالحصى فسلّم عليه وجلس عنده فأقبل يخاطبه ويعظه ويسلّيه وهو ينظر إليه ويلعب بيده كما كان وهو مفكّر قد غمره ما هو فيه فلما طال خطابه إياه قال : يا أخى أما لكلامى جواب ؟ فقال له : والله يا أخى ، ماعلمت أنك تكلّمنى فاعذرنى فإنى كما ترى مذهوب العقل مشترك اللُّبّ وبكى ثم أنشأ يقول :

وشُغلتُ عن فهم الحديث سوى ... ما كان منكِ فإنه شغلى
وأديمُ لحظ محدّثى ليرى ... أنْ قد فهمتُ وعندكم عقلى[1]

ومن هذه الروايات مايدلّ على أنه سمّى المجنون لشعره فقد رُوى عن ابن عائشة قال : إنما سمّى المجنون بقوله :

ما بالُ قلبك يا مجنونُ قد خلِعا ... فى حب من لا ترى فى نيله طمعا

الحب والودُّ نيطا بالفؤادِ لهـا ... فأصبحا فى فؤادى ثابتين معا[1]

كذلك قال المدائنى وقد ذُكر قيس عنده فقال : لم يكن مجنوناً وإنما قيل له المجنون بقوله :

وإنى لمجنونٌ بليلى موكّلٌ ... ولستُ عزوفاً عن هواها ولا جَلْدا
إذا ذُكرتْ ليلى بكيتُ صبابةً ... لتذكارها حتى يبلّ البكا الخدّا[1]

فهاتان الروايتان تدلّان على أنه سمّى المجنون لورود ذلك فى شعره . وهناك روايات أخرى كثيرة تقرّر نفس هذا الأمر غير أنه فى هاتين مقنع ..

بقى التعقيب على قولة الأصمعى أنه كانت به لُوثة .. والأغلب الأعمّ أنها كانت حالاتٌ من الذهول والاستغراق تصرفه عمّا حوله وقد يُغمض عينيه ويسبح فى آلامه غير شاعر بما يحيط به .. وحالات قيس من هذا القبيل وكان الرواة يتوسعون فى ذكر الإغماء وأنه غُشى عليه وليس ذلك قاصراً منهم عليه فإنا نجد فى تراجم الصوفية ما يروى أنهم غُشى عليهم وأنهم صعقوا .. انظر مثلا تزيين الأسواق ص ٣٤ : فصعق الشبلىّ وخرّ

مغشيًا عليه وص ٢٢ عن سعدون المجنون فخرّ مغشيًا عليه. وفي ص ٢٥ شاب مطروح سمع القرآن فسقط مغشيًا عليه . . . ثم صاح وخرّ مغشيًا عليه . وفي تهذيب ابن عساكر ج ٦ ص ٤٠ في ترجمة سابق البربري أنه وعظ عمر بن عبد العزيز فبكى عمر حتى سقط مغشيًا عليه . .

فليس الإغماء والغشيان عليه مرادًا به إلّا نوعٌ من الاستغراق وانصراف المحزون أو ذي الخشية إلى ذات نفسه مُطبقًا أجفانه حينًا أو باهت البصر حينًا آخر أو تدور عيناه في ذهول . وفي القرآن الكريم : « . . تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت . . » الأحزاب ١٩ وفيه أيضًا : « . . ينظرون إليك نظر المغشي عليه من الموت » محمد ٢٠ . وفي الآيتين عيون مفتوحة تدور ولكنها مشغولة عمّا تتطلّع إليه بما هي فيه وما تعانيه . على أنّ اللغة تشرح المغشي عليه بالمغمى عليه ويُقال أغمي على فلان إذا ظنّ أنه مات ثم يرجع حيًا . . (١)

فقيس إذن كانت تأخذه حالات من الذهول وتعتريه نوبات من الاستغراق تصرفه عمّن حوله وعمّا حوله وهذه حالة لم يألفها البدو في البادية وليس لها من تفسير ولا تعليل إلّا أن تُنسب إلى الجنون . أو يكون لقب المجنون قد لصق به لبيت قاله أو أبيات وهذه ليست بعادة مستغربة على

(١) مقدمة الديوان . عبد الستار فراج ص ٣٦

العرب وقد بينّا ذلك . . أمّا قيس فلم يك مجنونًا بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة . .

كان قيس جميل الوجه أبيض اللون قد علاه شحوب . (١) وكان طُوالًا جعد الشعر أعْين مصفرًا مهزولًا (٢) . . وهو فتى كأحسن ما يكون من الرجال وأجملهم (٣) والذي يبدو من سياق الروايات أن قيسًا كان جميل الصورة رائع الطلعة . . وكان أيضا حلو الحديث لبقًا يُجيد تشقيق الكلام لأنه كان صبًّا بمحادثة النساء (٤) . . ومن كان هذا شأنه فإنه يكتسب قدرة على التخلّص من المآزق التي يوقعن فيها مَن يحادثهنّ . .

وكان قيس أيضا قبل أن يذهب به العشق مذهبه بصيرًا بأدواء النساء طبيبًا . . فإنه لما وُصفت له ليلى – على مقتضى رواية ابن الجوزيّ – عمد إلى أحسن ثيابه فلبسها وتهيّأ . . وإن كلمة « تهيّأ » وحدها لتحمل من الدلالة على المقصود ما لا يخفى على اللبيب . .

وكان قيس لاشكّ منعّمًا لم يُكلّف من فروض الحياة بالشاقّ العسير وربّما رعى البَهْمَ وهو صغير أو سقى الأجمال وهو كبير . . غير أن هذا العمل ليس بالذي يستنفد طاقة الرجل ويملك عليه كلّ وقته . .

(١) الأغاني ج ٢ ص ٣٤ (٢) الشعر والشعراء ص ٥٦٨

(٣) الوالي ص ١٣ (٤) ذم الهوى ص ٣٨٦

وتدلّ مواقف قيس أيضا على أنه ـ قبل أن يذهب به العشق كلّ مذهب كان حكيماً حسن التخلّص والتصرّف وقد بدا هذا فى طلبه من مُنازل أن يصارعه أو يناضله بعيداً عن النسوة حتى لا يرينه ولا يراهن قال :

إذا ما انتضلنا بالخلاء نضلته
وإن يرم رشقاً عندها فهو ناضلى (١)

ذلك لأن مُنازلاً كان من حىّ ليلى وكان شاباً وسيماً وكان ولاريب أقوى من قيس وقيسٌ كان يعلم ذلك ويدركه لذلك أراد قيس أن يأخذه بعيداً حيث تفترُ حميّته . . فمنازل هو الذى طلب منه أن يصارعه وهو يعرض أمراً يدرك أنه لا محالة كاسبٌ فيه ويريد أن يعلمها لليلى فتنة ففطن لها قيس فأراد أن يأخذه بعيداً حيث لا يراه من النسوة أحد وكذلك حيث لا يرى ليلى ولا تراه فيفتر عند ذلك دافعه على المصارعة فيغلبه قيس . . وربّما كان قيس يحسّ أنّ مُنازلاً لابدّ صارعه فأراد أن يأخذه حيث يأمن على نفسه موقفاً يُزرى بمكانته فى قلب ليلى وهذا التصرف يدلّ دلالةً قويةً على كياسة قيس وحسن تخلّصه من المآزق والأحابيل . .

(١) الأغانى جـ ٢ ص ٣٠

وقد يحلو لبعضهم أن يسأل : إن كان قيس حكيماً كما زعمتَ فلماذا شبّب بليلى وذكرها فى شعره وهو يعلم أنه إن ذاع تشبيبه بها وحديثه عنها حُجبتْ عنه ومنعتْ منه ؟؟

وهذا السؤال لو كان فى أمرٍ آخر غير هذا لكان حسناً وكان وجيهاً . . ولكنه فى أمر الحب بالذات لا يسأله مَنْ ذاق من الحب قطرة . . لأنّ الحبّ لا يبدأ تمكنه من القلب دفعة واحدة وإنما قد يرى قيسٌ ليلى فتعجبه ـ وهو شاعر غزل يحب مجالسة النساء ومحادثتهن ـ فتحرك الشعر على لسانه ولا يملك من نفسه إلّا أن يقوله وهو أيضاً لا يظن أنها تمثّل فى حياته قيمةً تطغى على كل القيم فيها . . وإنما غاية الأمر أنها تروق له وأنه بها معجب وعليها مقبل فإذا كان الشعر صادقاً وفى الذروة من اللين والرقة فإن شيوعه أمر غير مستغرب أيضا . . هذا كله يحدث والهوى يسرى فى القلب كما تسرى النار فى الهشيم حتى إذا ما تمكّن من القلب ـ والشاعر لمّا يتنبه إليه بعدُ ـ جاءه حجبها وبعدها عنه على حين غفلة ومن غير تحذير ولا نذير . .

هذا هو التسلسل النفسىّ والمنطقىّ لوقائع الأحداث أمّا أن نتصوّر أنّ قيساً عند ما قال أول ما قال فى ليلى كان يفكر فى الزواج منها ويعتزم أن يلازمها لا يفارقها أبداً فهذا هو المحال الذى لا يُتصوّر فضلاً عن أن يكون . . .

وكان قيس شريفاً رفيع النسب فى قومه وكان أرفع من ليلى وأشرف منها نسباً حتى إن أباه يقول : والله ما كانت تطمع فى مثله(١)

وكان أبوه شيخاً جليلاً ويبدو أنه كان سيداً فى قومه مطاعاً فيهم مرهوب الجانب منهم . . وكان لقيس إخوة رجال وكانوا فى نعمة ظاهرة وخير كثير . . كذلك كان قيس أحب إخوته إلى أبيه وآثرهم عنده حتى إن أباه يشير إليهم ويقول: « والله لهو كان آثر هؤلاء عندى(٢) » . .

فالذى فرّق بين قيس وليلى هو عرف البادية وعادتها . . وكان ذلك العرف وتلك العادة يقضيان بأن الرجل إذا شبّب بفتاة وذاع أمرهما حيل بينهما حتى لا يكون الجمع بينهما سبّةً للأب وابنته وقومهما جميعاً .

* * *

صريعٌ من الحبّ المبرّح والهوى وأىُّ فتى من علّة الحبّ يسلمُ ؟

لله درّك يا قيس ! ما أحكمك ! لقد عدت حكيماً ترسل المثل السائر فى شطر البيت . . وأصبحت طبيباً تشخص الأدواء وتصف العلل وإن كنت أعجز الناس عن تدبير أمر الدواء والتماس أسباب الشفاء . .

وأىُّ فتى من علّة الحب يسلمُ ؟ أهو علّةٌ إذن ؟ فما سببها يا تُرى ؟ وما سبيل البرء منها ؟ وما وسيلة الرحيل عنها؟ لست أرى إلّا أن حكمتك

(١) الشعر والشعراء ص ٥٧٠ (٢) الشعر والشعراء ص ٥٧٠

انقطعت عنك أحوج ما تكون إليها يا قيس . . ولو كنت تدرى داء ودواء وعلّةً وشفاء لما حملت أتون اللهيب المقدس فى صدرك الحنون يكوى منك الأضالع ويعبث بك الليل ويلهو بك النهار . . أم تُراك عرفت الداء وأبصرتَ الشفاء ولكنك صدفت عنه لسببٍ فيه أو لعلّةٍ فيك ؟ ؟

لست أدرى ما وجدت بعد رحيلك يا قيس ؟ هل وجدت ما قلتَ صادقاً ؟ أم تراك قلت ما قلت فى إشراقة من إشراقات نفسك وفى لحظة من لحظات هيام قلبك ؟ ألست القائل :

لو سيل أهلُ الهوى من بعد موتهمُ
هل فرّجتْ عنكم مُذْ متُّمُ الكربُ ؟

لقال صادقهم أن قد بلى جسدى لكنّ نار الهوى فى القلب تلتهبُ
جفّت مدامعُ عين الجسم حين بكى وإنّ بالدمع عين الروح تنسكبُ

أما تزال نار هواك تلتهب فى قلبك؟ أما تزال عين روحك منسكباً دمعها ؟ ألست أصدق الصادقين فى الحب وأوفى الأوفياء فى الهوى ؟ ؟ فما عليك أن يختلف الناس فيك وما عليك أن ينحلك مَنْ شاء ما شاء من شعر يمتزج بشعرك امتزاج الماء بالخمر ؟ وما ذا دعاهم لذلك إلّا لأنك أصبحت علماً على الهوى وأمّةً فى الحبّ وحدك ؟ ؟ وما من معنًى بديع

وما من قولٍ رقيقٍ إلّا وهو دائرٌ في فلك هواك وقبسٌ من شمس حبك . .

على أن خلاف الناس فيك يا قيس ليس مقصوداً به حالك وإنما الناس على خلافٍ في أمر الحب نفسه . . وقد ذهبوا فيه طرائق قدداً وسلكوا فيه مسالك شتى . . وهم بين منكرٍ له طاعنٍ فيه وبين مثبتٍ له مُغالٍ فيه . . ومنهم مَنْ يجعله وهماً من أوهام الفكر ووسوسةً من وساوس الشيطان ومنهم مَنْ يجعله ترنماً للملأ الأعلى في آذان قلوب المحبين . .

فهل تأذن لي يا قيس أن أتحدث عن طرفٍ من سيرة هواك بين يديك ؟ ومعذرةً أن تسمع مني لغو الأطفال بين يديك يا شيخ الحب الكبير . .

ما أراك – يا قيس – في سماحة طبعك ورقة قلبك إلّا آذناً لي . .
فمعذرةً أيها الشيخ الجليل . . معذرة . .

* * *

. . سيرةُ هواه . .

إنّ الباعث الأول على إنكار وجود قيس أو مثل قيس في دنيا الناس إنما يرجع إلى قصورٍ في تصوّر الناس لملكات النفس الإنسانية ونوازع الإحساس بالجمال والصدق فيها . .

والمؤرخون والرواة الذين ينقلون أحاديث الناس وتواريخ الحوادث قومٌ شُككاك بطبيعتهم . . ومواطن الصدق في قيسٍ أكبر وأعلى بكثير من مواطن الصدق التي يمكن أن تتناولها أخبار الإخباريين وقصص القصاص . .

ثم إنّ النفس الإنسانية متعددة المواهب مختلفة المشارب متنوعة السمات فإذا خرج في تاريخ الإنسانية مَنْ يقصر حياته على موضوعٍ بذاته لا يتعداه ويستفرغ فيه جهده ويُفني عمره فهذا هو موطن العجب في الأمر . . إذ كيف يشذّ إنسان هذا الشذوذ العجيب عن مسار الإنسانية . .

وهناك أمرٌ آخر على جانبٍ كبيرٍ من الأهمية وهو أن طبيعة الإنسان قد فُطرت على التعزّي مع اليأس وعلى السلوّ مع الحرمان وفقد الرجاء . . ولكن الأمر مع قيسٍ لا يستقيم مع هذه الفطرة . . وهذا أيضاً من مواطن العجب فيه . .

والذى يصل بالنفس إلى نهاية الدهش وغاية العجب أنّ قيساً نمطٌ فريد فى تاريخ الحب على امتداد تاريخه . . وما من عاشق من شعراء العرب المشهورين ممّنْ شبّبوا ببنّ يمكن أن يقوم لقيسٍ فى مقام أو يجاريه فى مضمار . . فإخلاص قيسٍ نمَط معجب وفريد . . وتملّك سلطان الحب على قلبه نافذ ومسيطر وهو فى الوقت نفسه كان للحب خالصاً ومخلصاً . . وعلى كثرة المحبّين والعشاق المشهورين فى العرب فليس فيهم مَنْ يشابه قيساً من قريبٍ أو بعيد اللهمّ إلّا فى السمات العامة للحب والتى هى قاسمٌ مشترك بين المحبّين جميعاً والتى لا يكون المحب محبّاً بدونها . أمّا فى حقيقة العشق وإخلاص القلب وإصفاء المودّة والتضحية بالعمر فليس فيهم مَنْ يضرب فى هذا بسهم اللهمّ إلّا أن يكون سهماً قليلاً . . وهذا كثيّر عزة أحد العشّاق المشهورين والذى قيل فيه : لو رُقى المجنون بشعره لأفاق . . لم يكن صادق المودّة . ولا مخلص القلب . . ونحن نورد له رواية واحدةً تدلّ بعض الدلالة على حقيقة أمره . . فقد ذُكر أن عزّة قالت لبُثَيْنة صاحبة جميل : تصدّى لكُثيّر وأطمعيه فى نفسك حتى نسمع ما يجيبك به فأقبلت عليه وعزة تمشى وراءها متخفية وعرضت عليه الوصل فقاربها وقال فى ذلك :

رمتنى على عمـــد بثينة بعدما ... تولّى شبابى وارجحنّ شبابُها

بعينين نجلاوين لو رقرقتهمـــا ... لنوء الثريّا لاستهلّ سحابُها

فكشفت عزة عن وجهها فبادرها الكلام وقال :

ولكنّما ترمين نفساً مريضةً ... لعـــزة منها صفوها ولبابُها

فضحكت ثم قالت : أولى لك بها نجوت . وانصرفتا يتضاحكان . .

فشعراء العرب العشاق شعراء بالدرجة الأولى ولكنهم غلب عليهم فى شعرهم الغزل والشاعر الغزل يبحث عن موضوع يكون محوراً لشعره يطوف حوله ونجماً لغزله يدور فى فلكه أما حقيقة الحب نفسها فتكاد الروايات تعطى فى كثير من الأحوال لكلٍّ من هؤلاء الشعراء العشاق صوراً ليست من الحب فى شيء . . وهذه الصور ليست من تلك الأحداث التى تلمّ شعثها الظروف فتفرض على المحبّ وضعاً معيّناً ثم إذا زالت ظروفه عاد لحبه وهيام قلبه ليست كذلك ولكنها ـ من البحث فى الروايات التى نقلت قصص غرامهم ـ لون من ألوان استفراغ النفس الشاعرة طاقتها فى موضوع ما ثم لا تبالى بعد ذلك أذَهَبَ عنها أم ذهبتْ عنه حتى إن قيساً نفسه يقول :

عجبتُ لعروة العذرى أضحى ... أحاديثاً لقـــوم بعد قومِ

وعروة مات موتاً مستريحاً ... وها أنا ميتٌ فى كلّ يومِ

وتوحّدُ قيس وتفرّده فى هذا المجال ـ على كثرة التعقيد فيه ـ يكاد

يكون هو الباعث على إنكار قيس إذ أنه من السهل على الإنسان أن يعود إلى فطرته وطبيعة علاقات الناس من حوله من أن يسبح فى ملائكية تغاير طبيعته وطبيعة علاقات الناس من حوله . . ومن السهل على النفس عند ذلك أن تنكر قيساً وهو عليها أسهل من أن تتكلف المشاق فى تصور هذا الحب العجيب . .

وهذه جوانب من سيرة قيس وبعض من أخباره نحاول أن نتلمس منها روحه وأن نستبطن فيها أمره . .

* * *

بدايةُ الهوى . .

وهل للهوى بداية يمكن أن يقف المرء عندها فيقول: من ها هنا بدأ الهوى ؟ وهل الحب طريق ذو مراحل تُقطع فيُوصف على أنه من هنا إلى ها هنا مرحلة ومن هاهنا إلى هناك مرحلة ثانية ومن هناك إلى هنالك مرحلة ثالثة ؟ ؟ بداية الهوى عند قيس تبدأ منذ أن وعت عيناه النور ومنذ أدرك الحياة . هناك فى بادية نجد حيّان من بنى عامر . . حىّ قوم قيس يجاوره حىّ قوم ليلى وبينهما مراعى الشاة والبعير . . خرج من أحد الحيّين ـ لرعى الغنم ـ صبى وسيم قسيم وخرجت من الآخر صبيّة وضيئة جميلة . . ولكن الجمال لا قيمة له هنا إلّا أن يكون تعبيراً عن روعة الانسجام مع الطبيعة فى بساطة عرضها وفى سعة أفقها حيث تنبسط أرض البادية .

كان قيس وليلى صاحبته يرعيان البهم وهما صبيّان فعلقها علاقة الصبا وفى ذلك يقول :

تعلّقت ليلى وهى غرٌّ صغــيرةٌ ... ولم يبد للأتراب من ثديها حجمُ

صغيرين نرعى البهمَ يا ليت أننـا ... إلى الآن لم نكبر ولم يكبر البهم (1)

صبيان علق كل واحد منهما صاحبه وهما يرعيان مواشى أهلهما فلم يزالا كذلك حتى كبرا فحجبت عنه (2) .

(1) الشعر والشعراء ص ٥٦٤ (2) الأغانى ج ٢ ص ١١

فهو حب طاهر عفيف لا شهوة فيه من بداية أمره وقد نعم بقربها ولم يبد للأتراب من ندبها حجم ونعمت عند ذلك بقربه .. فما الذي استفاداه من تقدم العمر وكبر السن ؟؟ ألم يصبهما البعد وشطت بها الدار ونأى عنه المزار ؟؟ فما عجب إذن أن يتمنى قيس أن لو وقف الزمان فلم يكبر ولم تكبر ليلى ولم يكبر البهم .. ولكن الجميع كبر وكذلك الحب غير أن الأيام جاءت معها بالبين والتفريق والهجران ..

* * *

.. اختبار ..

وكبر الصبيان شيئاً ما وتمكنت المحبة من القلوب ثم أصبح فتى وأصبحت من بعد فتاة .. وأرادت أن تعرف هل لها في قلبه مثل الذي له في قلبها؟ وأرادت أن تحتال لذلك .. وأقبل ذات يوم على ناقة له كريمة وعليه حلتان من حلل الملوك فمر بامرأة من قومه يقال لها « كريمة » وعندها جماعة نسوة يتحدثن فيهن ليلى فأعجبهن جماله وكماله فدعونه إلى النزول والحديث فنزل وجعل يحدثهن وأمر عبداً له كان معه فعقر لهن ناقته وظل يحدثهن بقية يومه فبينما هو كذلك إذ طلع عليهم فتى عليه بردة من برد الأعراب يقال له مُنازل يسوق معزى له فلما رأينه أقبلن عليه وتركن قيساً فغضب وخرج من عندهن وأنشأ يقول :

أأعقر من جـــرا كريمة ناقتي ووصلي مفروش لوصل مُنازل ؟

فلما أصبح لبس حلته وركب ناقة له أخرى ومضى متعرضاً لهن فألفى ليلى قاعدة بفناء بيتها وقد علق حبه بقلبها وهويته وعنـــدها جويريات يتحدثن معها فوقف بهن وسلم فدعونه إلى النزول وقلن له : هل لك في محادثة من لا يشغله عنك منازل ولا غيره ؟ فقال : إي لعمري فنزل وفعل

مثل ما فعل بالأمس فأرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ماله عندها فجعلت تعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدث غيره وقد كان علق بقلبه مثل حبها إياه وشغفته واستملحها فبينا هي تحدثه إذ أقبل فتى من الحي فدعته وسارته سراراً طويلاً ثم قالت له : انصرف ونظرت إلى وجه المجنون وقد تغير وانتقع لونه وشق عليه فعلها فأنشأت تقول :

كلانا مظهر للناس بغضاً وكل عند صاحبه مكين
تبلغنا العيون إذا التقينا وفي القلبين ثم هوى دفين

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأغمي عليه فمكث على ذلك ساعة ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق وتمكن كل واحد منهما من قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ[1] .. وكأنه لما أفاق وسُرّي عنه قالت: إنما أردت امتحانك والذي لك عندي أكثر من الذي لي عندك وأنا معطية الله عهداً إن أنا جالست بعد يومي هذا رجلاً سواك حتى أذوق الموت إلا أن أكره على ذلك[2] ..

* * *

(١) الأغاني ج ٢ ص ١٣ (٢) ذم الهوى ص ٣٨٢

.. لقـــاء ..

صارت علاقة الصبا في القلبين العاشقين أكثر تمكناً وأبعد غوراً من ذي قبل ولكن لقاء قيس ليلى لم يكن بالمحظور وإن كان أكثر تقييداً من ذي قبل.. وهو يروي عن نفسه كيف كان يحتال لكي يراها.. فإذا طُلب منه أن يأتي بأدْم فليس هناك من يسأله غير أبي ليلى وليلى..

نعم هو يروي عن نفسه فيقول : طرقنا ذات ليلة أضياف ولم يكن عندنا لهم أدم فبعثني أبي إلى منزل أبي ليلى وقال لي: اطلب منه أدماً فأتيته فوقفت على خبائه فصحت به فقال : ما تشاء ؟ فقلت : طرقنا ضيفان ولا أدم عندنا فأرسلني أبي أطلب منك أدماً فقال : يا ليلى أخرجي إليه ذلك النِّحْيَ فاملئي له إناءه من السمن فأخرجته ومعي قعب فجعلت تصبّ السمن فيه ونتحدث فألهانا الحديث وهي تصبّ السمن وقد امتلأ القعب ولا نعلم جميعاً وهو يسيل حتى استنقعت أرجلنا في السمن . قال : فأتيتهم ليلة ثانية أطلب ناراً وأنا متلفع ببرد لي فأخرجت لي ناراً في عُطبة فأعطتنيها ووقفنا نتحدث فلما احترقت العُطبة خرقتُ من بُرْدي خرقةً وجعلتُ النار فيها فكلما احترقت الخرقة خرقت من بُرْدي خرقة وجعلت النار فيها فكلما احترقت خرقت أخرى وأذكيتُ بها النار حتى لم يبق عليّ من البُرْد إلا ما وارى عورتي وما أعقل ما أصنع ..[1]

(١) الأغاني ج ص ٣١

ولكن أيام الصفاء لا تدوم فقد فشا الأمر .. وكان لا بدّ من أن تحجب ليلى عنه .. وهل يطيق قيس لليلى فراقاً ؟؟ لقد حلّ عليه الشرود ونزل بساحته الوجوم وتفجرت من قلبه ينابيع الحنين فعاد وكأنه مجنون ورقّ له قومه فاجتمع أبوه وأمه ورجال من عشيرته إلى أبي ليلى فوعظوه وناشدوه الله والرحم وقالوا له: إنّ هذا الرجل لهالكٌ وقبل ذلك ففي أقبح من الهلاك بذهاب عقله وإنك فاجعٌ به أباه وأهله فناشدناك الله والرحم أن تفعل ذلك فوالله ما هي أشرف منه ولا لك مثل مال أبيه وقد حكّمك في المهر وإن شئتَ أن يخلع نفسه إليك من ماله فعل فأبى وحلف بطلاق أمها أنه لا يزوّجه إياها أبداً وقال: أفضح نفسي وعشيرتي وآتي ما لم يأته أحدٌ من العرب وأسِمُ ابنتي بميسم فضيحة فانصرفوا عنه وخالفهم لوقته فزوجها رجلاً من قومها وأدخلها إليه فما أمسى إلّا وقد بنى بها وبلغ الخبر قيساً فأيس منها حينئذٍ وزال عقله جملةً⁽¹⁾.

ولما منع أبو ليلى المجنونَ وعشيرتَه من تزويجه بها كان لا يزال يغشى بيوتهم ويهجم عليهم فشكوه إلى السلطان فأهدر دمه لهم فأخبروه بذلك فلم يروعه وقال: الموت أروح لي فليتهم يقتلونني فلما علموا بذلك وعرفوا أنه لا يزال يطلب غِرّةً منهم حتى إذا تفرّقوا دخل دورهم ارتحلوا عنها وأبعدوا.. وجاء المجنون عشيّةً فأشرف على دورهم فإذا هي بلاقع فقصد منزل ليلى الذي كان بيتها فيه فألصق صدره به وجعل يمرّغ خديه على ترابه ويبكي⁽²⁾ ..

(1) الأغاني ج ٢ ص ٢١ (2) الأغاني ج ٢ ص ٢٦

دعاء

واشتدّ الأمر على قيس بعد رحيلها وضاقتْ عليه الأرض بما رحبت وضاقتْ عليه نفسه ونفر من الناس كأنه يريد أن يهرب من ذكرياته وأطياف هواه ولكن هيهات! أين يمضي هاربٌ من دمه؟ وكلّ جميل تراه يا قيس سيذكّرك ليلى وحبّ ليلى فإلى أين تسير؟؟ وأهمّ أباه وعشيرته ما وصل إليه حال قيس فأقبلوا إلى أبي المجنون وقالوا له: لو أخرجته إلى مكة فعوّذته ببيت الله الحرام لعلّ الله يعافيه مما ابتُلي به فأخرجه أبوه إلى مكة وهما راكبان جملاً في محمل فلما قدما مكة قال له أبوه: يا قيس تعلّق بأستار الكعبة. ففعل.. فقال: قل: اللهمّ أرحني من ليلى وحبها. فقال: اللهمّ منّ عليّ بليلى وقربها فضربه أبوه فأنشأ يقول:

يا ربّ إنك ذو منٍّ ومغفرةٍ ... بيّتْ بعافيةٍ ليلَ المحبينا
الذاكرين الهوى من بعد ما رقدوا ... الساقطين على الأيدي المكبينا
يا ربّ لا تسلبنّي حبّها أبداً ... ويرحم الله عبداً قال آمينا

وقال أيضاً:

دعا المحرمون اللهَ يستغفرونه ... بمكة شعثاً كي تمحّى ذنوبُها
وناديتُ: يا رحمن أول سؤلتي ... لنفسيَ ليلى ثمّ أنت حسيبُها

وإن أعط ليلى فى حياتى لم يتب   إلى الله عبدٌ توبةً لا أتوبها

يقرُّ لعينى قربُها ويزيدنى   بها عجباً مَنْ كان عندى يعيبُها

وكم قائل قد قال : تُبْ فعصيته   وتلك لعمرى خلة لا أصيبُها

وما هجرتك النفس ياليلَ أنها   قلَتْكِ ولكن قلَّ منكِ نصيبُها

فيا نفس صبراً لستِ والله فاعلمى   بأولِ نفسٍ غاب عنها حبيبُها

فلما سمع أبوه هذه الأبيات رق له فأخذه بيده نحو مِنى يريد رمى الجمار فبينا هو بمنى إذ سمع منادياً ينادى من بعض تلك الخيام : ياليلى فخر مغشياً عليه واجتمع عليه قومه وأبوه باكٍ حزين فأفاق وهو مصفرّ اللون وأنشأ يقول :

وداعٍ دعا إذ نحن بالخيف من منًى   فهيج أحزان الفؤاد وما يدرى

دعا باسم ليلى غيرها فكأنما   أطار بليلى طائراً كان فى صدرى

دعا باسم ليلى أسخن الله عينه   وليلى بأرض الشام فى بلدٍ قفرِ

عرضتُ على قلبى العزاء فقال لى   من الآن فاجزع لا تملّ من الصبر

إذا بان من تهوى وشطّ به النوى   ففرقة مَنْ تهوى أحرّ من الجمرِ (١)

(١) ديوان المجنون . الوالبي ص [illegible]

وزاد شوقه لمّا كان بمنًى فربما كان جماعة من قومه يصعدون به الجبل كى يتنسّم الصبا وهى تهبّ من قِبل نجد لعل بردها يشفى حرّ قلبه . .

حدّث بعض المشايخ قال : خرجتُ حاجًّا حتى إذا كنتُ بمنى إذا جماعة على جبلٍ من تلك الجبال فصعدت إليهم فإذا فيهم فتًى أبيض حسن الوجه وقد علاه الصفار وبدنه ناحلٌ وهم يمسكونه فسألتهم عنه فقالوا : هذا قيس الذى يُقال له المجنون خرج به أبوه لمّا بُلى به يستجير له ببيت الله الحرام وقبر محمّد عليه أفضل الصلاة والسلام فلعلّ الله أن يعافيه . .

قلت لهم : فمالكم تمسكونه ؟ قالوا : نخاف أن يجنى على نفسه جنايةً تقتله . .

قال : وهو يقول لهم : دعونى أتنسم صَبا نجد . فقال لى بعضهم : ليس يعرفك فلو شئت دنوت منه فأخبرته أنك قد قدمت من نجد فأخبرته عنها . . قلت : نعم أفعل . . فدنوت منه فقالوا ياقيس هذا رجل قدِم من نجدٍ قال : فتنفس حتى ظننت أن كبده قد تصدّعت ثم جعل يسألنى عن موضعٍ موضعٍ ووادٍ وادٍ وأنا أخبره وهو يبكى . ثم أنشأ يقول :

ألا حبذا نجد وطيب ترابه   وأرواحه إن كان نجدٌ على العهدِ (١)

(١) ذم الهوى ص ٣٨٧

وحدة ووحشة

عاد أبو قيس به من مكة وقد زاد وجده وهيامه فكان يهيم على وجهه فى الفيافى فحبسه أبوه وقيده فكان يعض لسانه وشفتيه حتى خيف عليه أن يقطعهما فخليت سبيله فأخذ يهيم مع الوحش فى الفيافى يُذهب إليه كل يوم بطعامه فيوضع له حيث يراه فإذا تنحوا عنه جاء فأكل منه. وقد أيقن قيس أنه قد مُنع وأن لا سبيل إلى الوصل فصار لا يلبس ثوباً إلا خرقه وهام على وجهه عرياناً يخط بيده فى التراب ويمحو ويعبث بالحصى. وكان المجنون وليلى وهما صبيان يرعيان غنماً لأهلهما عند جبل فى بلادهما يُقال له التوباد فلما ذهب عقله وتوحّش كان يجيء إلى ذلك الجبل فيقيم به فإذا تذكر أيام كان يُطيف به هو وليلى جزع جزعاً شديداً واستوحش فهام على وجهه حتى يأتى نواحى الشام فإذا ثاب إليه عقله رأى بلداً لا يعرفه فيقول للذين يلقاهم: بأبى أنتم أين التوباد من أرض بنى عامر؟ فيقال له: وأين أنت من أرض بنى عامر أنت بالشام عليك بنجم كذا فأمّه فيمضى على وجهه نحو ذلك النجم حتى يقع بأرض اليمن فيرى بلاداً ينكرها وقوماً لا يعرفهم فيسألهم عن التوباد وأرض بنى عامر فيقولون: وأين أنت من أرض بنى عامر عليك بنجم كذا وكذا فلا يزال حتى يقع على التوباد فإذا رآه قال:

وأجهشت للتوباد حين رأيتهُ … وكبّر للرحمن حين رآنى

وأذريت دمع العين لما عرفتهُ … ونادى بأعلى صوته ودعانى
فقلت له قد كان حولك جيرةٌ … وعهدى بذاك الصرم منذ زمانِ
فقال مضوا واستودعونى بلادهم … ومَنْ ذا الذى يبقى على الحدثانِ
وإنى لأبكى اليوم من حذرى غداً … فراقك والحيّان مجتمعانِ
سجالاً وتهتاناً ووبلاً وديمة … وسحّاً وتسجاماً إلى هملانِ (1)

ثمّ ولى نوفل بن مساحق على بنى عامر فبينما هو فى بعض طريقه إذ مرّ برجل عريان كأصبح ما يكون من الرجال وهو قاعد يلعب بالتراب وقد جمع العظام حوله فدنا منه فقال: والله ما رأيت أعجب من هذا الفتى يا غلام اطرح عليه ثوباً. فقال له بعض أصحابه: أتدرى مَنْ هذا؟ قال: لا. قالوا: هذا مجنون بنى عامر. قال نوفل: والله لقد كنت أحبه وأحب لقاءه فكيف لى بالدنوّ منه؟ قيل له: إذا ذكرتَ له ليلى فإنه يأنس. فدنا منه نوفل وقال: أيها المشغوف إن ليلى تقرأ عليك السلام فلما ذكرها رجع إليه عقله وأقبل إليه يحدثه كأصحّ ما يكون من الرجال هو ينكت الأرض بأصبعه ويقول:

أيا هجر ليلى قد بلغت بىَ المدى … وزدت على ما لم يكنْ بلغَ الهجرُ
عجبتُ لسعى الدهر بينى وبينها … فلمّا انقضى ما بيننا سكن الدهرُ
فيا حبها زدنى جوًى كلّ ليلةٍ … ويا سلوة الأيام موعدك الحشرُ

(1) الأغانى ج ٢ ص ٥٢

قال له نوفل : الحب صيّرك إلى ما أرى : قال له : اللهمّ نعم وسيبلغ بي أكثر مما ترى وانقطع ينشده فلما أتمّ الأبيات قال له نوفل : هل لك أن تجيء معى حتى أقدم بلادك وأخطبها لك وأرغبهم في جميع ما يحتاجون إليه؟ قال: هل أنت فاعل ذلك؟ قال: نعم والله إن خرجت معى لأجهدنّ ولو غرمتُ فيك ملكى وما حوته يدى . . ثمّ أمر فأدخل الحمام وأمر الحجّام فأخذ من شعره وغيّر لحيته وكساه كسوةً فاخرةً فلما خرج نوفل أخرج المجنون معه فلما كان بالقرب من بلادهم بلغهم ذلك فتلقوه بالسلاح الشاكّ وقالوا : والله لا يدخل المجنون منزلنا أبداً وقد أهدر السلطان دمه وأقبل عليهم نوفل وأدبر فأبوا إلّا المحاربة وتشمّروا للمقارعة فلما رأى نوفل ذلك قال : انصرف فإن الأمر عندهم لَصَعب فانصرف المجنون عنه بخيبةٍ وقد كان أمر له نوفل بقلائص فردّها عليه وقال: ما وفيت لى بالعهد وأنشأ يقول :

رددتُ قلائص القرشىّ لمّا رأيتُ النقضَ منه للعهود
وراحوا مقصرين وخلّفونى إلى حـــزنٍ أعالجه شديدِ (١)

* * *

(١) الوالى ص ٥٥

نهايةُ قيس

خرج شيخ من بنى مرّة إلى أرض بنى عامر ليلقى المجنون قال : فدُللتُ على خيمةٍ فأتيتُها فإذا أبوه شيخٌ كبيرٌ وإخوةٌ له رجال وإذا نعمٌ ظاهرةٌ وخيرٌ كثيرٌ فسألتهم عن المجنون فاستعبروا جميعاً وبكوا وقال الشيخ: والله لهو كان آثر هؤلاء عندى وإنه عشق امرأة من قومه والله ما كانت تطمع فى مثله فلما أن فشا أمره وأمرها كره أبوها أن يزوجه إياها بعد ظهور الخبر فزوّجها من رجلٍ آخر فجُنّ ابنى وجداً عليها وصبابةً بها فحبسناه وقيدناه فكان يعضّ لسانه وشفتيه حتى خشينا أن يقطعهما فلما رأينا ذلك خلّينا سبيله فهو فى هذه الفيافى مع الوحش يُذهب فى كلّ يومٍ بطعامه فيوضع له حيث يراه فإذا تنحّوا عنه جاء فأكل وإذا أخلقت ثيابه أتوه بثياب فيلقونها حيث يراها ويتنحون عنه فإذا رآها أتاها فألقى ما عليه ثمّ لبسها . . قال : فسألتهم أن يدلّونى عليه لآتيه . . فدلّونى على فتًى من الحىّ وقالوا : لم يزل صديقه وليس يأنس بأحدٍ إلّا به فهو يأخذ أشعاره فيأتينا بها فأتيته فسألته أن يدلّنى على ما أحتال به للدنوّ منه فقال: إن كنت تريد شعره فكل شعرٍ قاله إلى أمس فهو عندى وأنا ذاهب غداً فإن كان قال شيئاً أتيتك به . قال : فقلت له : بل تدلّنى عليه

فأتيته فقال: إن نفر منك تخوّفتُ أن ينفر مني فيذهب شعره قال: فأبيت إلّا أن يدلّني عليه فقال: نعم اطلبه في هذه الصحارى فإذا رأيته فادن منه مستأنساً ولا تظهر النّفار منه فإنه يتهدّدك ويتوعدك وبالحرى أن يرميك بشيء إن كان بيده واجلس كأنك لا تنظر إليه والحظه ببصرك فإذا رأيته قد سكن أو عبث بيده فأنشده شعراً إن كنت تروى لقيس بن ذريح شيئاً فإنه يعجب به . .

قال: فخرجت أدور يومي فما رأيته إلّا بعد العصر جالساً على قوز من رمل قد خطّ بإصبعه فيه خطوطاً فدنوت منه غير منقبض منه فنفر مني كما تنفر الوحش إذا نظرت إلى الإنس وإلى جانبه أحجار مُلَمْلَمَة فتناول واحداً منها فأقبلتُ حتى جلست إليه ومكث ساعة وكأنه الشيء النافر للتهيؤ للقيام فلما طال جلوسي سكن وأقبل يعبث بأصابعه فنظرت إليه فقلت: أحسن والله قيس بن ذريح حيث يقول:

وإنّي لمفنٍ دمعَ عينيّ بالبكا   حذار الذي لمّا يكن وهو كائنُ

وقالوا غداً أو بعد ذاك بليلةٍ   فراقُ حبيبٍ لم يبن وهو بائنُ

وما كنتُ أخشى أن تكون منيّتي   بكفّي إلّا أنّ من حان حائنُ

فبكى طويلاً ثم قال: أنا والله أشعر منه حيث أقول:

وأدنيتني حتى إذا ما سبيتني   بقولٍ يُحلّ العصمَ سهل الأباطح

تجافيتِ عني حين لا ليَ حيلةٌ   وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانح

ثم عدت له ظباؤه فوثب في طلبها فانصرفت ثم عدتُ من الغد فلم أصبه فرجعت فأخبرتهم فوجّهوا الذي كان يذهب بطعامه فأخبرهم أنه على حاله لم يأكل منه شيئاً ثم عدت اليوم الثالث فلم أصبه ونظرت إلى طعامه فإذا هو على حاله ثم غدوت بعد ذلك وغدا إخوته وأهل بيته فطلبناه يومنا وليلتنا فما أصبناه فلما أصبحنا أشرفنا على وادٍ كثير الحجارة فإذا هو ميت بينهما فاحتملوه ودفنوه[1] .

* * *

تلك أطرافٌ من سيرة الهوى . . وما من شكٍّ أن المجنون كان معه وبعده مجانين كُثْر ولكنه طغى عليهم جميعاً لا بجنونه ولكن بصدق هواه . . وما كان قيسٌ إذ يُذكر بليلى وهواها إلّا حكيماً عاقلاً . . فقط يتوحّد ويتفرّد فيُرمى بالجنون . . وماذا في أن يتوحّد ويتفرّد عن الناس؟؟ أهناك عابٌ أن يتفرّد الإنسان مع الصدق بعيداً عن الزيف والبهتان ؟؟ أهناك منقصةٌ يلحق النفس عارُها ويلتصق بالروح شنارها إن توحّد الإنسان بعيداً عن الخداع والنفاق ؟؟ ما أظنّ في ذلك عاباً ولا منقصة . .

(١) الشعر والشعراء ص ٥٦٩

وما أجمل قول رهين المحبسين :

وماذا يبتغى الجلساء عندى   أرادوا منطقى وأردتُ صمتى

رحم الله قيساً وعفا عنه .. وسلام على قيس فى المحبين وسلام عليه فى الصادقين وسلام عليه فى ركب الحب الأمين ..

* * *

.. طبيعةُ شعره ..

إنّ من أظلم الظلم أن يُسلخ شاعر من بيئته وينزع من عصره كى يقف أمام محاكم النقد الحديثة فيُسأل عما لم يكن يعلم وهو يتململ تململ السليم ويبكى بكاء الحزين ويصيح : ياقوم ويلكم إن وعد الله حقٌ فلا يغرنّكم النقد الحديث ولا يغرنّكم بالله الغرور وما من مجيب ..

لقد أسمعتَ لو ناديتَ حياً   ولكن لا حيــاة لمن تنادى

وما أسمج أن يتناول متناولٌ شعر الجاهليين فينظر فيه نظر المغشىّ عليه من الموت ثم يُصدر عليه حكماً عاماً ويأتينا بالدواهى العظام .. وإذا أحكام كأمثال هذه الأحكام :

شعر امرىء القيس وزهير وطرفة والنابغة والأعشى وعامة الجاهليين يفتقر إلى الوحدة العضوية وإلى وحدة النسيج فى القصيدة وأغراضه ساذجة وصوره قريبة وهو لايعبّر عن جميع نواحى الحياة فى الجاهلية وهو لم يصوّر حياة العرب الجاهليّين الدينية ولا السياسية .. ولا .. ولا .. إلى غير ذلك من ترّهات تُضحك الثكلى وبطيش منها صواب الحليم ..

ولله درّ بن الأثير عندما ردّ على ما أورده أبو على بن سينا من أنّ الكلام الخطابىّ يُورد على مقدمتين ونتيجة فقال : وهذا مما لم يخطر لأبى على

ابن سينا يبالى فيما صاغه من شعرٍ أو كلامٍ مسجوع فإن له شيئاً من ذلك فى كلامه وعند إفاضته فى صوغ ما صاغ لم تخطر المقدمتان والنتيجة له ببال . ولو أنه فكّر فى المقدمتين والنتيجة ثم أتى بنظمٍ أو نثرٍ بعد ذلك لما أتى بشيء يقتنع به ولطال الخطب عليه . . وأقول شيئاً آخر وهو إن اليونان أنفسهم لمّا نظموا ما نظموه من أشعارهم لم ينظموه فى وقت نظمه وعندهم فكرة فى مقدمتين ولا نتيجة وإنما هذه أوضاع توضع وتُطوّل بها كتبهم ومصنفاتهم فى الخطابة والشعر وهى كما يقال : « فقاقيع ليس لها طائل » كأنها شعر الأبيوردى[(١)] .

هذه المحاكمات التى تُعقد للشعراء بعيداً عن بيئتهم وعصرهم « فقاقيع ليس لها طائل » . . ولكن المنهج الذى ينبغى أن يُراعى فى نقد شاعرٍ وتقويم شعره هو أن يُحاكم فى إطار عصره ومن خلال بيئته ويكون مقدار الصدق الفنىّ عنده على قدر اتساق شعره مع قيم الجمال فى ذلك العصر ومع محاولته لإصلاح ما اعوجّ من قيمٍ عن المسار الصحيح . .

من أجل ذلك لن نعدم أن نجد من يُسمّى بأشعر الشعراء فى عصره وإن كان عصره عصر انحطاطٍ وضَعةٍ فى النتاج الأدبى ولكنه أشعر الشعراء فى عصره وإن لم يكن أشعر الشعراء على إطلاق . .

---

(١) المثل السائر جـ ٢ ص ٦

وأمّا التفكك الذى يُرمى به الشعر العربى القديم فلعمرى إنّ هذا التفكك فى بناء القصيدة هو موطن الصدق الفنىّ فيها . . وأىّ شيء فى حياة البدوىّ أو العربى الأول كان مرتبطا بغيره ؟ ألم تكن دنياه هى هذه المفردات التى لا يراها مجموعةً فى إطارٍ ولا منسّقةً فى مجال ؟ لقد أراد الله تعالى أن يلفتهم إلى ما بين أيديهم وما خلفهم وما فوقهم وما تحتهم فقال : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت » . الغاشية (١٧-٢٠) :

فالله يلفتهم إلى ما بين أيديهم من الإبل كى ينظروا فى خلقها العجيب وتركيبها الفريد . . فهل من عيب أن تكون الإبل ممّا يلفت نظر الشعراء حتى يقوفوا على وصفها ونعت شياتها ؟ ويلفتهم الله أيضاً إلى السماء . . هكذا . . من الإبل إلى السماء ومن السماء إلى الجبال إلى الأرض . . وهذه حياتهم وبيئتهم لم يُغفلها القرآن بل لفتهم إليها ولم يطالبهم بأن ينسلخوا منها بل طالبهم بأن ينظروا فيها ويستجلوا مواطن الحكمة فى أرجائها فأى عيب على الشعراء العرب فيما صنعوا وأىّ مغمزٍ لهم فيما أتوا ؟ لقد وصفوا الليل والنجم والقمر والجبال والوهاد والأمجاد وكذلك الناقة والجمل والذئب والحمل وهذه هى معارفهم وقد أتوا فى وصفها والتعبير عن أحاسيسهم نحوها بالعجب الفريد . .

وما من شكٍ أنه لا يُطالب عاقلٌ امرأ القيس مثلاً بأن يكفّ عن وصف جواده ونجومه الواقفات بليله الطويل ثم يأخذ فى وصف القطار والطائرة أو مراكب الشمس ومراكب الفضاء .. لقد عبّر الشاعر عمّا يحسّ على قدر معطيات البيئة والعصر فكان على قدرٍ من السبق والتقدّم عجيب جدّ عجيب ..

وكثيراً ما نحكم على الشعر القديم لا بقوته من حيث هى ولكن بضعفنا نحن فإذا وجدنا مثلا أن كلمة «مستشزرات» فى معلقة امرىء القيس تُوحى بالثقل والتنافر فهى إذن ثقيلة ومتنافرة .. ونقول: نعم هى ثقيلة على ألسنتنا وعلى ألسنة من قبلنا إلى السكاكى والخطيب ولكن من يستطيع أن يجزم بأنها كانت ثقيلة على لسان امرىء القيس أو ألسنة من عاصروه؟ من يستطيع؟!

على أنّ التفكك الذى يُلحظ بين أغراض القصيدة الواحدة إنما يأتى من النظرة الأولى والنظرة الأولى دائماً حمقاء .. ونحن إذا نظرنا فى قصيدة كمعلقة زهير مثلا وجدنا أنّه يبدأ فيها بالبكاء على الأطلال ثم يتحدث عن الأظعان ويمدح الساعين فى السلام ثم يعظ المتحاربين ويتحدث إليهم ويختم القصيدة بأبيات من الحكمة ..

وهذا هو ابن قتيبة يروى عن بعض أهل الأدب أنّ هذا هو الترتيب

المنطقى الذى يصل به الشاعر العربى إلى غرضه فيقول: «سمعت بعض أهل الأدب يذكر أن مُقصّد القصيد إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدمن والآثار فبكى وشكا وخاطب الربع واستوقف الرفيق ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها إذ كان نازلة العمد فى الحلول والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر لانتقالهم عن ماء إلى ماء وانتجاعهم الكلأ وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدّة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ليُميل نحـوه القلوب ويصرف إليه الوجوه وليستدعى به إصغاء الأسماع إليه لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب لما قد جعل الله فى تركيب العباد من محبّة الغزل وإلف النساء فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً منه بسبب وضارباً فيه بسهم حلال أو حرام فإذا استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له عقّب بإيجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسُرى الليل وحرّ الهجير وإنضاء الراحلة والبعير. فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حق الرجاء وذمامة التأميل وقرّر عنده ما ناله من المكاره فى المسير بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزّه للسماح وفضّله على الأشباه وصغّر فى عينه الجزيل فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب وعدّل بين هذه الأقسام فلم يجعل واحداً منها أغلب على الشعر فلم يُطل حتى يملّ السامعين ولم يقطع وبالنفوس ظماء إلى المزيد[1] ..

(١) الشعر والشعراء ص ٧٣

فمحاكمة الشعراء ينبغى أن يراعى فيها بيئتهم وعصرهم وإلا فهو الظلم القبيح لهم .. وهذا هو قيس عاش فى القرن الأول الهجرى وفى بادية نجد فى عصر الحضارة وفى بيئة البساطة والقرب من الفطرة .. فهو رجل حضارة عاش عصر حضارة . فإذا حكمنا عليه الآن فى عصر المدنيّة بمنطوق المدنيّة فإنّ الحكم الذى لا يمكن أن يصدر فى حق قيس غيره هو أنه كان مائقاً وكان أحمق غير مستمسك العقل ولا جميع القلب وهو مجنون يخطّ على التراب أو الرمل بيديه ويجمع الحجارة من حوله ويعبث بالحصى والأمر فى هذه هينّ وبسيط . فمَنْ منّا فى لحظات شروده وتمكّن الهمّ من قلبه لم يعبث فيما أمامه أو حوله ؟؟ ومَنْ منّا فى هذه اللحظات لم يأت بحركات أنكرها هو على نفسه بعد أن يذهب عنه شروده وبعد أن يثوب إليه رشده ؟!

على أنّ هذا كله ليس بشىء فإن قيساً كان رجل حضارة يُعطى وهو مدفوع للعطاء وتملّكت عليه ظروفه وعادات البادية فحالت بينه وبين مَنْ يحبّ فغاص فى أعماق نفسه وهام فى أودية وجدانه ولا عليه بعد ذلك - إن كان صادقاً وقد كان - أن يرميه مَنْ يرميه بالجنون أو الخبل أو ذهاب العقل أو غير ذلك وما دار فى فلك ذلك .. ولكن هذا الجنون عجيب جدّ عجيب . فأى أذية ألحقها جنونه بمال غيره أو بحياته أو بعرضه ؟؟

وأىّ أذية لحقت غيره من لسانه أو يده ؟؟ مجنونٌ مثالىٌّ هو لاشك فى هذا ولا ريب فيه ..

شعر قيس هو شعر الوجدان وهو يدور حول محور واحد هو حبّه وهيام قلبه .. وهو يعبر عن وجده بمن يحب وحنينه إليه ويصف ما يدور بخلده من فكر فيه وشوق إليه .. ويعبّر عمّا يجيش فى صدره من نوازع الحب وطغيان الحرمان .. فهو شعرٌ وجدانىٌّ حول محور الوجدان الأصيل وليس فى شعر العرب ديوان على شاكلة ديوان قيس .. فقيس نمط فريد لم يتعدّ غرضه الوحيد أبداً حتى إنه لمّا هجا - إن صحّ أن هذا الشعر هجاء - نوفل بن مساحق إنّما هجاه من أجل أنه نقض عهده بأن يزوّجه ليلى .. فهو حبٌّ إذن وهو شوق وحنين ..

وقد فهم الجامعون لشعره هذه الحقيقة - وكذلك العامة الحمقى - على حدٍّ تعبير ابن المعتز فيما ذكرناه عنه قبل .

لذلك يقف شعر قيس بما فيه المنحول موقفاً عجيباً فى الشعر العربى كلّه من حيث وحدة الغرض وفخامة التراكيب وسلامة التعبير وصدق العاطفة .. فشعر قيس إذن شعر وجدانى عميق أصيل ..

* * *

.. مختاراتٌ من شعره ..

قال قيس :

وأدنيتني حتّى إذا ما سبيتني … بقولٍ يحلُّ العُصْمَ سهلَ الأباطحِ

تجافيتِ عنّي حين لا لِيَ حيلةٌ … وغادرتِ ما غادرتِ بين الجوانحِ

* * *

وقال :

كأنّ القلبَ ليلةَ قيلَ يُغدى … بليلى العامريةِ أو يُراحُ

قطاةٌ عزّها شَرَكٌ فباتتْ … تجاذبُهُ وقد علق الجناحُ

* * *

وقال :

وإنّي لأستغشي وما بي نعسةٌ … لعلّ خيالاً منكِ يلقى خياليا

وأخرجُ من بين البيوت لعلّني … أحدّثُ عنكِ النفسَ في السرِّ خاليا

أصبراً ولمّا يمضِ لي غيرُ ليلةٍ … رُوَيدَ الهوى حتى يُغِبَّ لياليا

أرى الدهرَ والأيّامَ تفنى وتنقضي … وحبُّكِ لا يزداد إلّا تماديا

* * *

وقال :

أمزمعةٌ ليلى ببينٍ ولم تمتْ … كأنّك عمّا قد أظلّك غافلُ

ستعلمُ إنْ شطّتْ بهم غربةُ النّوى … وزالوا بليلى أنّ قلبك زائلُ

* * *

وقال :

سلبتِ عظامي لحمَها فتركتِها … مُعرّقةً تضحى لديكِ وتخصرُ

وأخليتِها من مُخِّها فكأنّها … قواريرُ في أجوافها الريحُ تصفرُ

إذا سمعت ذكرَ الفراقِ تقطّعت … علائقُها ممّا تخافُ وتحذرُ

خذي بيدي ثمّ انهضي بي تبيّني … بيَ الضرَّ إلّا أنني أتسترُ

* * *

وقال :

راحوا يصيدون الظّباءَ وإنّني … لأرى تصيّدَها عليّ حراما

أشبهْنَ منكِ سوالفاً ومدامعاً … فأرى عليّ بها لِدَاكِ ذِماما

أعززْ عليّ بأنْ أروّعَ شبيهَها … أو أن يذقْنَ على يديّ حِماما

* * *

وقال :

إذا قربتْ دارٌ كلفتُ وإنْ نأتْ … أسِفتُ فلا بالقربِ أسلو ولا البعدِ

وإن وعدت زاد الهوى لانتظارها
وإن بخلت بالوعد مت على الوعد

ففي كل حب لا محالة فرحة
وحبك ما فيه سوى محكم الجهد

* * *

قال :

وألقى من الحب المبرح سورة … لها بين جلدي والعظام دبيب

لقد شف هذي النفس أن ليس بارحاً
لها شجن ما يستطاع قريب

فلا تتركي نفسي شعاعاً فإنها
من الوجد قد كادت عليك تذوب

* * *

وقال :

أأترك ليلى ليس بيني وبينها … سوى ليلة إني إذن لصبور
هبوني امرأً منكم أضل بعيره … له ذمة إن الذمام كبير
وللصاحب المتروك أعظم حرمة … على صاحب من أن يضل بعير
عفا الله عن ليلى الغداة فإنها … إذا وليت حكماً علي تجور

* * *

قال :

وخبرتماني أن تيماء منزل … لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذي شهور الصيف أمست قد انقضت
فما للنوى ترمي بليلى المراميا
ولو كان واش باليمامة داره
وداري بأعلى حضرموت اهتدى ليا
إذا ما جلسنا مجلساً نستلذه … تواصوا بنا حتى أمل مكانيا
وماذا لهم لا أكثر الله حظهم … من الحظ في تصريم ليلى حباليا

* * *

قال :

وقالوا لو تشاء سلوت عنها … فقلت لهم فإني لا أشاء
وكيف وحبها علق بقلبي … كما علقت بأرشية دلاء
لها حب تنشأ في فؤادي … فليس له وإن زجر انتهاء
وعاذلة تقطعني ملاماً … وفي زجر العواذل لي بلاء

* * *

وقال :

فقالوا : أين مسكنها ومن هي … فقلت : الشمس مسكنها السماء

فقالوا: مَنْ رأيتَ أحبَّ شمساً   فقلتُ: عليَّ قد نزل القضاء

* * *

وقال:

فوالله ثم الله إني لدائبٌ   أفكّر ما ذنبي لديكِ فأعجبُ
ووالله ما أدري علامَ هجرتِني   وأيَّ أموري فيكِ يا ليلَ أركبُ
أأقطعُ حبلَ الوصلِ فالموتُ دونه   أم اشربُ كأساً منكمُ ليس يُشربُ
أم اهربُ حتى لا أرى لي مجاوراً   أم افعلُ ماذا؟ أم أبوحُ فأغلبُ
فأيّهما يا ليلَ ما تفعلينَه   فأولُ مهجورٌ وآخرُ معتبُ
فلو تلتقي أرواحنا بعد موتنا   ومن دون رمسَينا من الأرض منكبُ
لظلّ صدى رمسي وإن كنتُ رمّةً   لصوت صدى ليلى يهشّ ويطربُ
ولو أنّ عيناً طاوعتني لم تزل   ترقرقُ دمعاً أو دماً حين تسكبُ

* * *

وقال:

فؤادي بين أضلاعي غريبُ   ينادي مَن يحبُّ فما يجيبُ
أحاط به البلاءُ فكلَّ يومٍ   تقارعه الصبابةُ والنحيبُ

لقد جلب البلاءَ عليَّ قلبي   فقلبي ـ مذ علمتُ ـ له جلوبُ
فإن تكن القلوب كمثل قلبي   فلا كانت إذاً تلك القلوبُ

* * *

وقال:

أهابُكِ إجلالاً وما بكِ قدرةٌ   عليَّ ولكن ملءُ عينٍ حبيبُها
وما هجرتكِ النفسُ أنّكِ عندها   قليلٌ ولكن قلَّ منكِ نصيبُها
ولكنهم يا أملحَ الناس أكثروا   بقولٍ إذا ما جئتُ: هذا حبيبُها
أأضربُ ليلى إن مررتُ بذي الغضى   وما ذنبُ ليلى إن طوى الأرضَ ذيبُها؟

* * *

وقال:

ألا ويحَ مَنْ أمسى يُخلَّسُ عقلُه   فأصبحَ مذهوباً به كلَّ مذهبِ
خليّاً من الخلّان إلا معذّباً   يُضاحكني مَنْ كان يهوى تجنّبي
إذا ذُكرتْ ليلى عقلتُ وراجعتْ   روائعَ قلبي من هوى متشعّبِ
وقالوا صحيحٌ ما به طيفُ جِنّةٍ   ولا الهمّ إلا بافتراء التكذّبِ
ولي سقطاتٌ حين أُغفِلُ ذكرَها   يخوضُ عليها مَنْ أراد تعتّبي

وشاهد وجـــدى دمع عينى وحبُّها
برى اللحم عن أحناء عظمى ومنكبى

تجنَّبتُ ليلى أن يلجّ بى الهوى   وهيهات كان الحبُّ قبل التجنّب

* * *

وقال :

ألا يا غرابَ البَيْنِ هيَّجْتَ لوعتى   فويْحكَ خبّرنى بما أنتَ تصرخُ
أبالبين من ليلى فإن كنت صادقاً   فلا زال عظمٌ من جناحك يفسخُ
ولا زال رامٍ فيكَ فوّق سهمَه   فلا أنتَ فى عُشٍّ ولا أنت تفرخُ
ولا زلتَ فى عَذْب المياه مُنفَّرا   ووَكْرُكَ مهْدوماً وبيضُك يرضخُ
فإنْ طرْتَ أرْدَتْكَ الحتوفُ وإنْ تقع
تقيّض ثعبانٌ بوجْهـــــك ينفخُ
وعاينتَ قبل الموْت لحمك مشرحاً   على حرٍّ جمر النار يُشوى ويُطبخُ
ولا زلتَ فى شرِّ العذاب مُخلّداً   وريشك منتوفٌ ولحمُك يشدخُ

* * *

وقال :

فقلن لقد بكيتَ فقلتُ كلّا   وهل يبكى من الطرب الجليدُ
ولكن قد أصابَ سوادَ عينى   عُوَيْدُ قذى له طرفٌ حديدُ

فقلن فما لدمعهما ســـواء   أكلتا مُقْلَتَيكَ أصابَ عودُ

* * *

وقال :

وجدتُ الحبَّ نيراناً تلظّى   قلوبُ العاشقين لها وقـــودُ
فلو كانت إذا احترقتْ تفانتْ   ولـكن كلّما احترقتْ تعودُ
كأهل النّارِ إذ نضجت جلودٌ   أعيدتْ ـ للشقاء ـ لهم جلودُ

* * *

وقال :

تشكّى المحبون الصّبابة ليتنى   تحمّلتُ مايلقون من بينهم وحدى
وكانت لنفسى لذة الحبّ كلها   فلم يلقها قبلى محبٌّ ولا بعدى

* * *

وقال :

فما رحمتْ يوم التفرّق مهجتى   وقد كاد يبكى رحمةً لى بعيرُها
ولا لى رثتْ لما شكوتُ صبابتى   ولا أطفأت ناراً يشبُّ زفيرُها
وإنّى من البلوى أســير صبابةٍ   وزادت بى البلوى يكرُّ مرورُها
فلا تعذلونى تكسبون خطيئتى   مخافةُ مثلى للمماتِ مصــيرُها

* * *

وقال :

مقاى دعينى فى الهوى متعللاً   فقد متُّ إلّا أننى لم يُزَرْ قبرى

فلو كنتِ ماءً كنتِ من ماء مُـــزنةٍ

ولو كنتِ نوماً كنتِ من غفـوة الفجرِ

ولو كنتِ ليلاً كنتِ ليلَ تواصُلٍ

ولو كنتِ نجماً كنتِ بدرَ الدجى يسرى

عليكِ سـلام الله يا غاية المنى   وقاتلتى حتى القيامةِ والحشرِ

* * *

وقال :

أما والذى أعطاك بطشاً وقـوةً

وصـبراً وأزرى بى وقصّ من بطشى

لقد محض اللهُ الهوى لكِ خالصاً   وركّبه فى القلب منى بلا غشّ

تبرّأ من كلّ الجسوم وحلّ بى   فإن متُّ يوماً فاطلبوه على نعشى

سلِ الليلَ عنى هل أذوقُ رقاده ؟   وهل لضلوعى مستقرٌّ على فرشى ؟

* * *

وقال :

أنفسُ العاشقين للشوق مرضى   وبـلاه الحبِّ لا يتقضّى

عبراتُ المحبِّ كيف تراها   بعضها يستحثّ فى الخـد بعضا

ليس يخلو أخو الهوى أن تراهُ   كلَّ يومٍ يُلامُ أو يترضّى

باكياً ساهياً نحيلاً ذليلاً   ليس يهـدا وليس يطعم غمضا

* * *

وقال :

ألا إنّما أفنى دموعى وشفّنى   خروجى وتركى مَن أحبُّ ورائيا

وما لى لا يستنفد الشوقُ عبرتى   إذا كنتُ من دار الأحبّة نائيا

إذا لم أجد عذراً لنفسى ولمتها   حملتُ على الأقدار ما كان جاريا

* * *

والحمد لله أولاً وأخيراً والحمد لله كثيراً وصلى الله وسلّم

على النبي محمد وآله وبارك كثيراً

تصويبات

وقعت بعض الأخطاء مما لايمكن الاحتراز من مثله فى كلّ حين .. ثم أبصرتْها النظارةُ العجلى فصوّبتْ منها ما تيسّر .. وما وراء ذلك فهو مما لايحتجب وجه صوابه عن فطنة اللبيب ..

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٤	٤	تفرس	تفرّس
١٠	١٥	نا	هنا
١٢	١٢	اشتعالها أسفرت	اشتعالها وأسفرت
١٣	٧	كيف	كثيف
١٣	١٦	محنٌ	محنٌ
١٤	٢	بهم	بهم
١٦	١	الخ	الحرّ
١٦	٣	إمىٌّ	إنسىٌّ
١٦	٥	أعل	أجمل
١٧	١٣	ومعَ	وسِعَ
١٩	٥	مجداً	مجداً

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٠	٣	الغيث كان	الغيث حيث كان
٢١	١٥	وقد كن	وقد كان
٢٢	٢	اختلف	إختلف
٢٣	١٥	تكون	تسكن
٢٤	٣	رواية	راوية
٢٤	٤	الرواية	الراوية
٢٤	٥	يرى	يروى
٢٤	١٠	لايوثق	لايوثق
٢٥	١٢	رُوى تداوله	رُوى وتداوله
٢٧	١١	أتمّها	أتمّها
٣٠	٥	صحابىٌّ وتابعىٌّ	صحابىٌّ جليلٌ وتابعىٌّ
٣٠	٨	الأهم	الأهيم
٣١	١٦	حُلق	خُلق
٣٢	٤	اتسلم	الاستسليم

رقم الإيداع بدار الكتب ٤٤٥٩ / ١٩٨٢
الترقيم الدولى ٧ = ٠٠١ - ٣١٦ - ٩٧٧